# صورة مكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها

إعداد

**د. عبد الحفيظ محمد حمان**

أستاذ التعليم العالي

جامعة عبد المالك السعدي

كلية الآداب – تطوان

**بحث مقدم إلى ندوة**

**مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ**

يرتبط البحث في هذا الموضوع بمحاولة إبراز دور مكة المكرمة الحضاري وتوثيق بعض الجوانب الاجتماعية والعمرانية والجغرافية وإعطاء صورة لها وللأماكن المقدسة فيها عبر إحدى الفترات التاريخية ( القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي )ومن خلال إحدى المصادر التاريخية الحيوية والفعالة والتي تعد من أسس ذاكرة الأمة ومن الوسائل المهمة والمعينة على فهم الماضي وبناء المستقبل ألا وهي المخطوطات .

وانطلاقا من ذلك، وقع اختياري على مخطوط مهم يحمل عنوان " قرّة العين في أوصاف الحرمين " من تأليف أبو عبد الله محمد المحجوب .

## I ـ التعريف بالمخطوط والمؤلف :

### أ ـ التعريف بمورفولوجية المخطوط :

توجد النسخة التي اعتمدناها في هذه الدراسة بمكتبة خاصة [١] . ويقع المخطوط في ٧٦ صفحة من مسطرة ٢٥ ❖ ١٨ ، منها ٣٤ صفحة تهم مكة والأماكن المقدسة فيها . وتحتوي كل صفحة على ٢٩ سطرا .

والمخطوط مكتوب بخط مغربي متوسط تتخلله كلمات بلون مغاير عندما يذكر عناوين العناصر أو الفصول .وفي الصفحة الأخيرة منه نجد تاريخ نسخه وهو ٢١ صفر الخير من عام ١٢٨٤ هـ مما يدل على أن هذه النسخة متأخرة .

١ ـ أمدّني بهذه النسخة الأستاذ الدكتور عبد الله المرابط الترغي، رئيس شعبة الأدب العربي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان .

وتوجد لدينا نسخة أخرى من المخطوط ورد ذكرها تحت رقم ١١٩٨٢ في فهرس الخزانة الحسنية بالرباط .

وتقع هذه النسخة في ١٥٠ صفحة من مسطرة ٢١ ❖ ١٦، منها ٧٤ صفحة تهم مكة والأماكن المقدسة فيها . وفي الصفحة ٢٠ سطرا ، مكتوب بخط مغربي واضح مختلف في أوله عن آخره، وليس به ما يدل على تاريخ كتابته .

**ب ـ التعريف بالمؤلف :**

لم نستطع العثور على ترجمة للمؤلف ، وحتى المؤلفات الأخيرة التي جمعت تراجم المؤلفين في الغرب الإسلامي لم تذكر هذا المؤلف [١]، وما نعرف عنه تبقى شذرات قليلة استقيناها من المخطوط .

إسمه بالكامل كما ورد في الصفحة الأولى للمخطوط هو أبو عبد الله محمد المحجوب، ويتبيّن من خلال نسبه أن صاحب المخطوط من الغرب الإسلامي وبالتحديد إما من تونس أو من الجزائر .وممّا يزيد في تعزيز هذا الترجيح ما عثرنا عليه في متن المخطوط عندما يتحدث المؤلف عن الدور والمساكن المبنية بجبال مكة ومتراكبة بعضها فوق بعض كبناء مدينة بجاية بالمغرب الأوسط [٢]، غير أننا نرجح أن يكون المؤلف من منطقة المغرب الأدنى نظرا لانتشار هذا النسب ( المحجوب ) في هذه المنطقة .

كما يتبيّن من خلال المخطوط أن المؤلف كان فقيها متمكنا

---

١ ـ على سبيل المثال أذكر كتاب : محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ٣ أجزاء،دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢ .

٢ ـ قرّ العين في أوصاف الحرمين . صفحة : ٢٧ .

ومولعا بجمع الأخبار والمعلومات وتتبع الآثار حيث شبّه نفسه بقوله :" ولما كنت جهينة هذه الأخبار شديد العناية بهذه الآثار " [١] .

وعاش المؤلف في فترة القرن التاسع الهجري حيث أدى فريضة الحج سنة ٨٦٠ هـ التي توافق سنة ١٤٥٥ من التاريخ الميلادي .

**II ــ استعراض معلومات المخطوط المتعلقة بمكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها :**

يستهل صاحب المخطوط أبو عبد الله المحجوب كتابه بمقدمة صغيرة يستعرض فيها الدوافع والغرض من تأليف كتابه، فيقول بأن بعض أصحابه من المدرسين والعدول أخبروه أن بعض المجالس العلمية كثر فيها الحديث عن مكة المكرمة ووقع فيها الخلاف في وصفها ومقاييس مساحتها وصفة المسجد الحرام بها وغير ذلك، فكلفوه، ما دام له اهتمام كبير بجمع الأخبار والعناية بالآثار وبالأخص إذا تعلق الأمر بهذا المكان المقدس، بأن يبحث عن أوصاف وأخبار الحرمين الشريفين . فعقد العزم على ذلك واستعان بالله لتحقيق هذا القصد النبيل .

وبعد هذا المدخل يذكر لنا المؤلف المصادر التي جمع منها هذه الأوصاف والأخبار، ويصنفها إلى ثلاثة أصناف : في القسم الأول يذكر لنا مجموعة الكتب التي اعتمد عليها في تأليفه وفي طليعتها كتاب " تاريخ مكة وأخبارها " للإمام أبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، ثم كتاب الحافظ أبي عبد الله الفاكهي " الجامع لأخبار الحرمين الشريفين " ، ومنها كتاب " شرح السيرة النبوية الكريمة "

١ ـ نفسه، ص. ١ .

للحافظ أبي القاسم السهيلي، ومنها كتاب " المسالك والممالك " لأبي عبيد الله البكري، ومنها رحلة الفقيه الأديب أبي الحسين بن جبير الأندلسي، ومنها كتاب " المناسك " للفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون، ومنها كتاب " تهييج الغرام إلى البيت الحرام " للفقيه تقي الدين الفاسي نزيل الحرم المكي الشريف وقاضي المالكية في أواخر المائة الثامنة وأوائل المائة التاسعة .

والقسم الثاني من هذه المصادر يبرز أنه مصدر شفوي .فإلى جانب هذه الكتب التي استعرضها فإنه نقل بعض الأخبار من أكابر العلماء وأفاضل المحدثين والمصنفين في أخبار المدينة الشريفة.

أما القسم الثالث فاعتمد فيه على المعاينة من خلال ما شاهده من أوصاف الحرمين في السنة التي أدى فيها فريضة الحج وهي سنة ٨٦٠ هـ .

وفي الفقرة الأخيرة من هذه المقدمة يذكر عنوان الكتاب فيقول: " وقد سميت هذا المجموع المبارك بكتاب "*قرّة العين في أوصاف الحرمين*" .

١ / وبعد هذه المقدمة يبدأ أبو عبد الله محمد المحجوب في الحديث عن مكة المكرمة بإعطاء نبذة تاريخية عنها . فيبدأ مع اسم مكة كما ورد في القرآن الكريم وكذلك في كتب التوراة والإنجيل. ثم يعطي خلاصة عن مكة والكعبة قبل إبراهيم عليه السلام، فيتحدث عن إيجاد مكة ومعنى تسميتها في القرآن الكريم بأم القرى، ثم يتعرض إلى الحديث عن الكعبة وكيفية هبوط قبة الياقوت من الجنة - من طرف الملائكة - في موضع الكعبة وطوافهم

بها إلى غاية خلق آدم عليه السلام وطوافه بقبة الياقوت، ثم رفعها الله وأمر آدم ببناء أساس الكعبة . ويختم المؤلف هذه الفقرة بالكلام عن صفة الكعبة قبل الطوفان وبعده .

بعد ذلك، يتفصل المؤلف في ذكر أخبار مكة والكعبة في عهد إبراهيم عليه السلام . فيبدأ بذكر قصة إبراهيم عليه السلام حين جاء بزوجه هاجر وولده إسماعيل إلى وادي مكة وكيف نشأ وترعرع إسماعيل عليه السلام مع قبائل جُرهم والعمالقة وهم أول من اعتمر وادي مكة، كما يؤكد المؤلف، وبنوا به المنازل والدور والأعرشة للظلال . كما يتعرض للحديث عن بناء الكعبة من طرف إبراهيم وولده إسماعيل مستندا إلى رواية القرآن ثم إلى ما ذكره الأزرقي .

ثم ينتقل المؤلف إلى ذكر مقياس الكعبة من ناحية الطول والعرض كما بناها إبراهيم، والشكل الذي عليه الكعبة وكيف وضع إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود . ويبيّن كيف فرض الله تعالى مناسك الحج على إبراهيم وأمره بإبلاغها إلى كافة الناس .

ويستمر في إبراز الأطوار التاريخية حول تناوب أمور مكة والكعبة في يد إسماعيل عليه السلام بعد وفاة إبراهيم، ثم بعد ذلك أولاد إسماعيل لتنتقل بعد ذلك إلى أخوالهم من قبائل جُرهم حيث تعاقبوا عليها أحقابا طويلة إلى أن آل الأمر إلى بطون خُزاعة فأخرجوهم من مكة وأرض الحجاز، فلم يزل أمر مكة والكعبة بأيدي خزاعة حتى انتزعها منهم قصي بن كلاب سيد قريش في عصره . وهنا يتوقف المؤلف قليلا ليروي قصة قصي في انتزاع مكة من أيدي خزاعة وكيف تمكن من أمر مكة وجمع قومه من بطون

قريش فأنزلهم بها وحازوها وعمروها وتناسلوا بها بعد أن كانوا متفرقين بنواحي تهامة .

بعد ذلك يتفصل في ذكر الكيفية التي جدد بها قصي، ومن بعده، بناء الكعبة التي كانت قد تهدمت، مستندا في ذلك إلى ما ذكره البكري والأزرقي .

فيبدأ مع قريش كيف رفعت الكعبة على القواعد التي كان قد أسسها إبراهيم عليه السلام، ويتعرض لشكل الكعبة وكيف نقصت قريش من طولها ستة أذرع عما كانت عليه في عهد إبراهيم وكيف أضافوا لارتفاع الكعبة تسعة أذرع حيث صار ارتفاعها ثمانية ذراعا ، وكيف بنوا سقفها وجعلوا له ميزابا يصوب إلى حجر إسماعيل، كما جعلوا للكعبة بابا شرقيا مرتفعا عن الأرض .

واستمر شكل الكعبة ، كما يقول المؤلف، على هذه الصفة حتى جاء الله بالإسلام . ولم يحدث الرسول صلى الله عليه وسلم في الكعبة شيئا لأجل ائتلاف لقلوب قريش، ونفس الأمر ظل في عهد الخلفاء الراشدين وتبعهم على ذلك معاوية .

بعد ذلك يسرد المؤلف الأحداث التاريخية المتمثلة في حصار يزيد بن معاوية لعبد الله بن الزبير في الكعبة التي لجأ ولاذ بها ، وكيف تعرضت الكعبة للقصف بالمنجنيق واحترقت بعض أطرافها .

ولما توفي اليزيد ، يذكر المؤلف كيف جدّد ابن الزبير بناء الكعبة - بعد تهديمها - على قواعد وأسس إبراهيم عليه السلام، واحتفظ بالشكل الذي كانت عليه الكعبة في عهد إبراهيم، وجعل لها بابين، بابا شرقيا وبابا غربيا ولما فرغ من بنائها جعل لها كسوة .

ولما قتل ابن الزبير من طرف الحجاج، قام هذا الأخير بتغيير بناء الكعبة وردها على ما كانت عليه في زمن قريش وصدر الإسلام . فمن ناحية شكلها، كما يذكر المؤلف، رفع بابها الشرقي عن الأرض كما كان في زمن قريش وأغلق بابها الغربي الذي أحدثه الزبير. ويؤكد أبو عبد الله المحجوب أن الكعبة بقيت على هذه الصفة إلى وقته كما شاهدها في أيام تأديته لفريضة الحج .

٢ / ينتقل المؤلف، بعد نهايته من الحديث عن الكعبة وبنائها وأوصافها ومقاييسها عبر الفترات التاريخية من عهد إبراهيم عليه السلام مرورا بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى فترته التي يعاصرها، إلى ذكر معالم الكعبة على الشكل التالي : الحجر الأسود، باب الكعبة، ملتزم الكعبة، سقف الكعبة وميزابها، حجر الكعبة وركنها اليماني، كسوة الكعبة، مقام إبراهيم، مطاف الكعبة، حطيم الكعبة .

❖ الحجر الأسود : يبدأ مع الحجر الأسود ويستند بالأخص إلى مصادر الأزرقي والبكري في أصل الحجر الأسود ومقاييسه من ناحية الطول والعرض وارتفاعه من الأرض .

ثم يتعرض إلى ذكر رواية القرامطة الذين اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى بلادهم عام ٣١٧ هـ والعذاب الذي أنزله الله عليهم بسبب ذلك حتى ردّوه وأرجعوه إلى مكانه في الكعبة في عهد أحد أمرائهم بعد غياب دام اثنين وعشرين عاما كما يذكر من خلال مصدر البكري .

❖ باب الكعبة : بعد ذلك ينتقل إلى الكلام عن باب الكعبة

مستندا في البداية إلى رواية الأزرقي عن أول من جعل للكعبة بابا ، وأول من جعل حلية الذهب والفضة على بابها . ثم لما قامت قريش بتجديد بناء الكعبة جدّدوا كذلك بابها وجعلوه شرقيا . ثم جعل بعد ابن الزبير بعد ذلك بابين شرقيا وغربيا ، فعوض الحجاج بعده الباب الشرقي بأن جعله مرتفعا عن الأرض وأغلق الباب اغربي . وهنا يذكر المؤلف أنه ما زال مغلقا ومشاهدا على هذه الصفة إلى وقته .

ثم، بعد ذلك، يحدد حسب مصدر الأزرقي مقياس ارتفاع باب الكعبة عن الأرض ( عشرة أشبار ) وبين الباب وبين الركن الذي فيه الحجر الأسود عشرة أشبار كذلك . كما يحدد ، حسب الأزرقي دائما ، طول فرجة الكعبة ( ستة أذرع وعشرة أصابع ) وعرضها ( ثلاثة أذرع وثمانية عسر أصبعا ) . وفي هذا الصدد يذكر أن أول من جعل لباب الكعبة مصراعين اثنين هو عبد الله بن الزبير، وقد جعلهما من خشب رفيع وغشاهما بصفائح الفضة .

ثم يستمر في ذكر تجديد المصراعين مرارا عبر فترات تاريخية لاحقة . وفي فترة حجته يقول إنه شاهد هذان المصراعان ووجدهما من خشب الصندل ورأى عليهما صفائح من فضة مسمرة بمسامر من فضة وكل ذلك مموه بالذهب .

❖ ملتزم الكعبة : يقتصر في هذا العنصر بتحديد مكان الملتزم، فيأتي بروايتين : الأولى للأزرقي التي تقول إن مكان الملتزم هو ما بين الكعبة والحجر الأسود من شرق جدارها . والرواية الثانية يقول هو ما بين الركن اليماني وبابها الغربي المسدود . ثم يستخلص المؤلف أن كليهما يسمى الملتزم والاحتياط أن يقصد كل واحد منهما

بالدعاء والتبرك كما ورد في الحديث .

❖ سقف الكعبة وميزابها : يستند المؤلف هنا إلى روايات كثيرة، فيبدأ مع البكري حول روايته عن سقف الكعبة وأول من بناه وكذلك عن الميزاب وكيف أن قريشا جعلوا سقف الكعبة ميزابا يصوب إلى حجر إسماعيل . ثم يأتي برواية الأزرقي حول طول الميزاب وأول من غشاه بالذهب وهو الوليد بن عبد الملك . ثم ما ذكره ابن جبير في رحلته كيف وجد الميزاب وطوله، وكذلك ما ذكره مرجع تقي الدين الفاسي حول تجديد الخليفة الناصر للميزاب في أواسط المائة السادسة .

ويختم هذا العنصر بذكر ما شاهده بنفسه في عام حجته بأن الميزاب من ذهب خالص شديد اللمعان وأن عرضه أزيد من ذراع وطوله أزيد من ذراعين .

❖ حجر الكعبة وركنها اليماني : بعد استعراضه للتغييرات التي طرأت على الحجر في زمن قريش ثم في عهد الحجاج الذي أخرج الحجر من الكعبة، على عكس ما فعل ابن الزبير، وكما كان في عهد قريش يؤكد المؤلف أن الكعبة ما تزال، إلى الفترة التي يعاصرها، على الصفة التي تركها الحجاج .ثم يعطي قياس الحجر، حسب ما أورده الأزرقي، فيما يخص طوله من بابه الشرقي إلى بابه الغربي وهو عشرون ذراعا، وعرضه في جدار الكعبة تحت الميزاب إلى جداره هو سبعة عشر ذراعا وثمانية أصابع . ويؤكد المؤلف دائما من خلال مصدر الأزرقي أن قياس ستة أذرع وشبر من هذا العرض كلها من الكعبة . وفي فقرة أخرى يذكر، حسب الأزرقي، أن طول جدار

الحجر في الهواء ذراعان وثلاثة أصابع . وأما البكري فيذكر أن عرضه ذراعان ينقصان أصبعين . بعد ذلك يؤكد المؤلف أن طوله وعرضه حسب ما شاهده لا يبلغ لهذا القياس .

ثم يتعرض أبو عبد الله المحجوب إلى الحديث عن شكل الحجر حيث يؤكد أنه مستدير بينه وبين الكعبة فرجتان إحداهما في شرقه والأخرى في غربه وهو، كما يقول، ما أشار إليه الأزرقي ببابه الشرقي وبابه الغربي . ويسترسل المؤلف مبينا أن ليس هنالك بابا ولا مصارع وإنما هما فرجتان يدخل الناس من إحداهما ويخرجون من الأخرى .

وبعد ذلك يبرز جمالية الحجر من حيث تفريشه بالرخام الملون الرفيع من عهد الوليد بن عبد الملك ومحمد المهدي العباسي حسب ما حكاه ابن جبير في رحلته ويؤكد أنه شاهده في عام حجته مفروشا بالرخام الملون .

وبعد انتهائه من الحديث عن الحجر ينتقل إلى الكلام عن الركن اليماني، فيبدأ بتحديد موقعه حيث يقول إنه ركن الكعبة الجنوبي الغربي ويوضح ذلك قائلا :" يعني أنه يواجه الجنوب بأحد وجهيه ويواجه الغرب بالآخر ". ثم يتحدث عن شكله بأنه حجر قائم البناء كأنه صوان شديد الصلابة ولونه مكرر البياض والناس يخصونه بالاستلام ويسمونه الركن اليماني ويتناقلون ذلك جيلا بعد جيل من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويشير المؤلف أن الأزرقي والبكري لم يذكرا طوله وعرضه، ويقول، بناء على الظن، أن طوله أزيد من ذراع وعرضه أقل من شبر .

❖ كسوة الكعبة : في هذا الجانب يقوم المؤلف بسرد تاريخي مفصل حول كسوة الكعبة عبر الفترات التاريخية . فيبدأ مع أول من كسا الكعبة ويقول بأنه تبّع المؤمن وهو أسعد أبو كرب، ثم يذكر كسوتها من طرف أكابر العرب من خزاعة وقريش حتى عهد الإسلام . فيبين كيف كسا النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة بعد فتح مكة بثوب أبيض من مصر، وتبعه على ذلك الخلفاء الراشدون . ويذكر أن أول من كساها الحرير والديباج معاوية، ثم تبعه على ذلك ملوك بني مروان من بني أمية وفئة من ملوك بني العباس الذين كانوا حسب قوله يكسونها الحرير الأحمر، حتى كان عهد محمد الأمين بن هارون الرشيد فكساها كسوة حرير مختلف الألوان وتبعه على ذلك أخوه المأمون وجميع ملوك العباسيين .

ولما انهارت دولة بني العباس عام ٦٥٦هـ، يقول المؤلف، أخذ ملوك مصر من الأتراك تارة، وملوك بني رسول من اليمن تارة أخرى، بحسب تحكم كل دولة منهما على أرض الحجاز، يبعثون بكسوة الكعبة حتى جاء عهد الملك الظاهر بيبرس الذي كسا الكعبة بالحرير الأسود .

٣ / وبعد الانتهاء من ذكر الكعبة وحجرها الأسود وركنها اليماني وبابها وسقفها وميزابها وحجر إسماعيل وكسوتها، يبدأ المؤلف في ذكر المعالم القريبة من الكعبة .

❖ مقام إبراهيم : يتفصل المؤلف في الحديث عن هذا المكان المبارك، فيبدأ بتعريف مقام إبراهيم بأنه حجر رخامي المعدن ولونه مغير عن البياض . وفي هذا الصدد يعتمد على مصادر الأزرقي

والبكري ورحلة ابن جبير . وكذلك، من خلال هذه المصادر، يبين لنا اختلاف كل من الأزرقي والبكري في تحديد طول حجر المقام . حيث إن الأول يقول بأن طوله ذراع بينما الثاني حدده في أحد عشر أصبعا، ويحسم المؤلف بأن مصدر الأزرقي أو كلامه هو الأثبت والأصح . ومن ناحية عرض حجر المقام يذكر لنا المؤلف أن كلا المصدرين اتفقا على أن عرض أعلاه أربعة عشر أصبعا .

وبعد ذلك يتعرض إلى ذكر وتبيان قدسية هذا المقام اعتمادا على الآيات القرآنية موضحا كذلك أنه لا خلاف بين الأمة أن الحرفين اللذين بأعلاه هما أثرا قدمي إبراهيم عليه السلام . وفي هذا الصدد يتفصل بذكر عنصرين : سمّى الأول فائدة وسمّى الثاني تنبيه .

عنصر الفائدة يوضح فيه أن مقدار قدمي إبراهيم عليه السلام ليس بأكبر من آثار أقدام عصرنا - أي العصر الذي يعيش فيه المؤلف - وما قبله إلى عهد نبينا صلى الله عليه وسلم .

عنصر التنبيه يشرح فيه كيف أن العلماء ذكروا أن إبراهيم عليه السلام وقف على حجر المقام ثلاث مرات : الأولى أثناء بنائه للكعبة والثانية حين جاء راكبا على البراق إلى مكة والمرة الثالثة حين أمره الله تعالى فوقف على هذا الحجر ليؤذن بالحج .

ومن ثمة يسترسل في إبراز قدسية المقام وتعظيمه من عهد إسماعيل عليه السلام إلى زمن قريش وكيف كانوا يجعلونه داخل بيت للكعبة مع ذخائرها وعندما جاء الإسلام وبعث الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أخرج حجر المقام من جوف الكعبة ووضعه بإزائها من شرقها وندب الناس إلى الركوع عنده إذا فرغوا من

الطواف طبقا للآية الكريمة " واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ". ثم بعد ذلك يبين، المؤلف، أنه عندما تكاثر المسلمون في عهد خلافة عمر بن الخطاب ووقع الزحام بين المصلين عند المقام والطائفين بالكعبة، أخذ الخليفة عمر حجر المقام بيده وأخره إلى الموضع الذي يوجد عليه إلى الآن في عصر المؤلف .

بعد ذلك ينتقل أبو عبد الله المحجوب إلى الحديث عن أن الحجر المبارك كان مكشوفا في زمن الجاهلية وصدر الإسلام، يلمسه الناس بأيديهم للتبرك به حتى أثر ذلك فيه بكثرة لمس أيديهم، فغشاه أوائل ملوك الإسلام بصفائح الذهب والفضة صيانة له من تأثير كثرة الأيدي . ويسترسل في الحديث عن التغييرات التي حدثت في صيانة الحجر المبارك حيث جعل عليه شباك من حديد على مقداره ثم جعل فوقه شباك خشب أعظم من شباك الحديد، وتم ذلك، كما يقول المؤلف، " عندما فسد الزمان وخيف على هذا الحجر المبارك طوارق الحدثان ... كل ذلك مبالغة في صيانته وأن لا يوصل إليه ". ويسترسل في إبراز هذه المتغيرات إلى أن تمّ تغطية الشباك بكسوة من حرير .

وهنا يقف المؤلف للحديث عن مشاهدته ومعاينته، في وقت حجته، للحجر المبارك بهذه الصفة وهو مغطى بكسوة من حرير مختلطة السواد والبياض محكمة الصنعة وهي محيطة على قدر الشباك . ويؤكد على أن حجر المقام لا يظهر ولا يراه أحد من الناس بسبب الشبابيك وكسوتها . وإنما يراه من يحضر لانكشافه في وقت تبديل كسوته يوم عيد النحر عندما يتم كذلك كسوة الكعبة، ويتركونه مكشوفا بقية يوم عيد النحر ليراه الحجاج ويشاهدوه . وفي

هذا اليوم، يقول المؤلف بأنه رآه بعد طواف الإفاضة وكيف تمتع بمشاهدة آيات الله البينات منه وهو بشبابيكه وكسوته في بيت صغير مربع الجهات وسقفه قبة غير مرتفعة .

❖ مُطاف الكعبة : يعرفه المؤلف بأنه المكان الذي يمشي فيه الحجاج عند طوافهم بالكعبة، وهو محيط بالكعبة على استدارة . ويصفه، حسب مشاهدته ومعاينته، بأنه مفروش بحجارة جيدة ويؤكد على أنه ليس بأرض المسجد الحرام كله شيء مفروش بالحجارة سواه، وباقي المسجد محصب بحصباء تعوض في كل عام عند انقضاء موسم الحج .

❖ حطيم الكعبة : يشير المؤلف هنا إلى الاختلاف الذي حصل في تحديد وتعيين هذا المكان . فحسب أبو عبيد البكري فإن الحطيم هو ما بين الكعبة وزمزم ومقام إبراهيم، وهو كناية عن بنائها الشرقي . وحسب روايات أخرى يشير أبو عبد الله المحجوب إلى أن بناء الكعبة من جميع جهاتها يسمى حطيما لأن الدعاء فيه على الكفار والظلمة يحطمهم أي يهلكهم .

**٤ / بداية المسجد الحرام ونهايته :**

بعد الانتهاء من الحديث عن الأماكن المقدسة القريبة من الكعبة يتطرق المؤلف المحجوب إلى الكلام عن المسجد الحرام من جميع الجوانب . فيأتي بسرد للأحقاب التاريخية ليبيّن التغييرات التي طرأت على تعيين حدود المسجد الحرام، وذلك منذ عهد إبراهيم عليه السلام حتى فترة الدولة العباسية في عهد محمد المهدي الذي وسع المسجد الحرام وصيره على الصفة التي رآها المؤلف عليها .

في البداية يشير إلى أن إبراهيم عليه السلام لما بنا الكعبة لم يجعل لها حدودا أو حاجزا بل كان كل ما يحيط بها هو المسجد الحرام . وفي زمن قريش بدأ أكابرهم يشيدون منازلهم قريبة من الكعبة قصد الاعتزاز والشرف . وحسب رواية ، يذكرها المؤلف، يقول بأن عبد المطلب كان أول من بيّن مطاف الكعبة ، عندما كثر البناء حولها ، وذلك ببناء حائط قصير ميّز به حرم الكعبة .

وعندما جاء الإسلام لم يحدث الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا في ذلك ونفس الأمر سار عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه . إلا أنه في عهد خلافة عمر بن الخطاب، عندما كثر عدد المسلمين، يذكر المؤلف استنادا إلى مصدر الأزرقي، قام عمر رضي الله عنه بتوسيع مطاف الكعبة . فاشترى المنازل المحيطة بالكعبة وضمها إلى ساحة مطافها وبنا جدارا بارتفاع قامة الإنسان يحيط بالمطاف، كما جعل له فُرجا عبارة عن أبواب ليدخل ويخرج الناس منها . ونفس الشيء قام به عثمان رضي الله عنه، فاشترى دورا كثيرة زادها في مساحة المسجد الحرام طولا وعرضا ، وحطم الجدار الذي بناه عمر بلبن الطوب وبناه عثمان بالحجارة الجيدة وزاده في ارتفاعه وحافظ على أبوابه . ويشير المؤلف إلى أن عبد الله ابن الزبير اشترى أيضا دورا كثيرة وزادها في مساحة المسجد الحرام دون أن يحدث فيه شيئا.

وفي عهد عبد الملك بن مروان لم يقم بتوسيع المسجد المبارك ولكن هدم كل الجدار المحيط به وبناه بالحجارة المتقنة وجعل ارتفاعه أزيد من عشرة أذرع، وأحدث في داخله أساطين ليستظل الحجاج بها من حرّ الشمس والمطر . وكان عبد الملك بن مروان،

حسب ما يؤكده المؤلف، هو أول من فعل ذلك، كما أنه كان أول من اهتم بزخرفتها ونقشها وجعل لها سواري رفيعة من الرخام وبنا لجميع جدران المسجد أبوابا منقوشة متقنة وكان ذلك في عام ٨٠ هـ استنادا إلى رواية الأزرقي .

وبعدما تولى الوليد بن عبد الملك أمر الخلافة، يقول المؤلف بأنه اعتنى بمسجد مكة والمدينة عناية عظيمة . فقام بهدم الأساطين التي شيدها أبوه وجميع الجدران المحيطة بالمسجد الحرام، ثم شيدها بإتقان وقوة فادحة كما يذكر المؤلف . وجعل بداخل المسجد مجنبتين متنافذتين، فاتسعت بهما الظلال ورفع سقفهما على أقواس رائقة البهجة، وبنا جدار المسجد الحرام من جميع جهاته بالحجارة المنقوشة الجيدة وجعل ارتفاعه على ما هو عليه في زمن المؤلف كما يؤكد هذا الأخير .

وفي عهد الدولة العباسية، يذكر لنا المؤلف، أن جعفر المنصور زاد في اتساع المسجد الحرام عندما اشترى الدور كذلك . وتولى بعده الخلافة ولده محمد المهدي الذي أحدث تغييرات شملت المسجد الحرام حيث وسّع أطرافه وجعل الكعبة في وسط صحنه وجعل للمسجد ثلاث مجنبات متنافذات تظل خلقا كثيرا . وهذه هي الصفة التي شاهدها وعاينها المؤلف كما يذكر بنفسه .

ويختتم المؤلف وصفه وذكره لحدود المسجد الحرام بذكر ما قاله الأزرقي حول عدد سواري الرخام بالمسجد الذي يناهز أربعمائة وثمانون، يزيد بعضها على بعض في الطول والغلظ . كما يستند في هذا الصدد إلى مرجع تقي الدين الفاسي الذي يذكر أن جميع سواري

الرخام التي كانت بغرب المسجد الحرام أصابها حريق شديد في نهاية المائة الثامنة من الهجرة واحترقت بذلك أسقف المجنبات القريبة كلها وسواريها وأقواسها ثم أعيدت عوض تلك السواري عرصات مبنية بالحجارة والطين .

❖ مساحة المسجد الحرام : في بداية هذا العنصر يؤكد المؤلف أن العلماء المهتمين بهذا الشأن لم يتطرقوا إلى ذكر طول وعرض ومساحة المسجد الحرام سواء في زمن قريش وصدر الإسلام أو حين تمت توسعته في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وابن الزبير والوليد وأبو جعفر المنصور . وإنما ذكروا مساحته بعد توسيعه في عهد المهدي العباسي . وهنا يذكر ما قاله الأزرقي حول طول المسجد الحرام من المشرق إلى المغرب وهو أربعمائة ذراع، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ثلاثمائة ذراع وأربعة أذرع . ونفس المقاييس، كما يقول المؤلف، ذكرها أبو عبيد البكري . وكلاهما ، بالإضافة إلى ابن جبير في رحلته، تطرقا إلى ذكر عدد أبواب المسجد الحرام وهي تناهز ثلاثة وعشرين بابا .غير أن المؤلف يؤكد أن هذا العدد تقلص باختلاف الولاة ووصل عددها في عصره إلى ثمانية أبواب : فيذكر أسماء بعضها ويحدد مكانها حسب ما شاهده وعاينه .

فثلاثة من هذه الأبواب، كما يقول، توجد في شرق المسجد الحرام يخرج منها إلى المسعى بين الصفا والمروة وهو سوق مكة منذ أزمان . وباب واحد في غرب المسجد يسمى باب إبراهيم . ويقول المؤلف بأن هذا الإسم هو لتاجر عجمي شيّد هذا الباب وجُدّد في المائة السادسة فنسب إليه . وبابان في جنوب المسجد أحدهما باب الصفا لأنه

يقابل جبل الصفا، وفي جوف المسجد المبارك بابان أحدهما يسمى باب الدكّة. والدّكّة، كما يقول المؤلف، هو سوق الرقيق بمكة. أما الثاني فهو باب حَزْورة، وحزْورة جبل صغير كان موجودا هنالك.

❖ صوامع المسجد الحرام: يحدد عددها في خمس صوامع، أربع منها في أركانه الأربعة وواحدة في أواسط جداره تقابل حجر إسماعيل. ويؤكد أبو عبد الله المحجوب أن الذي أحدث هذه الصوامع هو الوليد بن عبد الملك والمهدي العباسي. ويسترسل مبينا أن الفترة التي حج فيها إلى بيت الله وجد عدد هذه الصوامع خمسا وهي تشبه شكل بناء الصوامع في مصر.

❖ البيوت المبنية بصحن المسجد الحرام: يذكر المؤلف أن عددها أربعة، فالبيت الأول يقول عنه إنه البيت الصغير الذي فيه حجر مقام إبراهيم حيث قدّم وصفه سابقا. والبيت الثاني يعتمد في وصفه على الرواية الشفوية التي رويت له عند حجّته، فيقول بأن هذا البيت مخصص لاختزان آلات الاستصباح. وهنا يذكر بأنه شاهد بعضهم يخرج منه حسك الشمع وقناديل الزجاج. والبيت الثالث هو الذي فيه بئر زمزم. أما البيت الرابع فيقول المؤلف بأنه في الوقت الذي أدى فيه فريضة الحج كان هذا البيت يسمى قبة الشراب لأن فيه خوابي وأواني المياه التي يتم ملؤها بماء زمزم ويترك فيها ليبرد. ويذكر بأن القائمين بهذا البيت وعلى مائه هم من ذرية العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويسترسل في إعطاء وصف دقيق لكيفية سقاية الماء من بئر زمزم فيقول بأن الخدام يسقون الماء من بئر زمزم ويصبونه في جدع

نخل منقور خاو، طرفه على عرصة في بيت زمزم وطرفه الثاني في بيت سقاية العباس، وإذا أفضى الماء إليها وملئت منه خوابيها روّقه القائمون به وصفّوا أوانيهم خارج بيت سقايتهم فيشرب الناس منها . ويؤكد المؤلف في هذا الجانب على أن هذه الطريقة في سقاية ماء زمزم يجرى في سائر أيام العام غير موسم الحج . ففي هذا الموسم، كما يقول، تغلق أبواب هذا البيت وتختزن الأواني فيه وذلك حتى لا يفسد بسبب كثرة الجهّال والأعراب كما يقول المؤلف المحجوب . ويقتصر الناس على شرب ماء زمزم من مصاصات نحاسية خارج البيت مركبة على أواني كبيرة أعدّت لذلك في موسم الحج .

❖ بئر زمزم وصفتها وصفة حجرتها وقربها من الكعبة : يبدأ المؤلف هذا العنصر بذكر رواية الأزرقي الذي يحد بالتدقيق المسافة القائمة بين ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود وبين حجرة زمزم ومقام إبراهيم والتي تصل إلى أربعة وعشرين ذراعا وعشرين أصبعا . ويذكر أن أول من بنا قبة بئر زمزم وفرش ما حولها بالبلاط هو أبو جعفر المنصور ثم ولده المهدي حيث جدد كذلك في عهد المتوكل في المائة الثالثة . ودائما استنادا إلى مصدر الأزرقي أن مبنى بئر زمزم طوله أربعون ذراعا وعمق الجبل المحفور الذي يوجد به الماء يصل إلى تسعة وعشرين ذراعا .

وحسب الأزرقي دائما، يذكر لنا المؤلف أن في قعر بئر زمزم ثلاث عيون مائية، إحداها تجري من جهة الكعبة والحجر الأسود وكلها غزيرة المياه .

إضافة إلى ذلك يأتي المؤلف برواية ابن جبير الذي ذكر في

رحلته بأن مهوى الحبال في بئر زمزم أحد عشرة قامة وطول عمق مائها سبع قامات، لا يقع النقص فيها سواء في موسم الحج أو طول السنة .

وفي هذا العنصر يتعرض المؤلف مرة أخرى إلى ذكر حجرة زمزم حيث يتفصل في وصفها . فيذكر في مستهل حديثه أن بناءها قديم من عهد بني أمية وبني العباس، ثم جددت مرارا . واستنادا إلى المشاهدة الحية يقول بأنه شاهد هذه الحجرة مفروشة بالبلاط الجيد وبها حياض ملتصقة بجدرانها يملؤها الناس بقصد الوضوء، ثم يذكر أن ماء الوضوء وغيره يخرج في قناة له تحت الأرض حتى يفضي إلى خارج المسجد .

ويستمر في وصف وذكر الجوانب الأخرى للحجرة، فبابها يوجد من جهة الشرق وعليه مصراعان جيدان وبأعلى سطح هذه الحجرة بناء رفيع، ويقول بأن أهل مكة وأهل مصر يسمونه " الدّكّة " . وفي هذا الموضع يؤذن المؤذنون للصلوات والإقامة . وحسب مصدر ابن جبير يقول المؤلف أن البناء كذلك قديم، ويؤكد أنه شاهد به أثر تسقيف جديد.

❖ مياه مكة غير زمزم : يستهل المؤلف هذا العنصر بذكر انعدام المياه في هذا الوادي المبارك - ويعني مكة - قبل ماء زمزم . ثم لما استقرت قبائل جُرهم بمكة حفروا آبارا بمكة وتبعتهم على ذلك قبائل خزاعة . ثم مع مرور الأيام وفتن الحروب طمست تلك الآبار .

بعد ذلك يذكر صاحب المخطوط الآبار التي حفرتها قريش بمكة من طرف هاشم بن عبد مناف وأخاه عبد شمس وهي عبارة عن بئرين اكتفت قريش بهما حتى جاء الإسلام . وفي عهد دولة العباسيين

يـذكر المؤلـف كيـف كثـرت سـبل الميـاه في مكـة ويـبين كيـف تمّ توصيل المـاء إلى مكـة مـن طـرف زوجـة هـارون الرشـيد زبيـدة الـتي أنفقـت في سبيل ذلك أموالا طائلة .

ويـستمر في ذكـر كيـف انقطعـت هـذه المجـاري بعـد هـوان الدولـة العباسـية ثـم يتحـدث عـن مجـاري الميـاه الـتي حفرهـا الملـك المـصري " برسـباي " في حـدود سـنة ٨٣٠ هـ، وبالاسـتعانة بأحـد التجـار تمّ إيـصال هـذه المجـاري إلى مكـة . وهنـا يؤكـد المؤلـف أن أهـل مكـة لهـم انتفـاع كـبير بهـذه الميـاه في هـذه الفـترة الـتي يعاصـرها . ويـصف بدقـة الكيفيـة التي يجري بها الماء إلى مكة .

وفي الفقـرة الأخـيرة لهـذا العنـصر يرجـع أبـو عبـد الله المحجـوب إلى الحـديث عـن مـاء زمـزم مـن حيـث مذاقـه، حيـث يـبين أن هـذا المـاء المبـارك كانـت فيـه حروشـة ملوحـة علـى عهـد عبـد المطلـب الـذي كـان يقـوم بنقـع الزبيـب في المـاء حتـى يـسوغ شـرابه . واسـتمرت هـذه الطريقـة مـن طـرف ولـده العبـاس حتـى عـذب المـاء ببركـة الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم . ويـأتي المؤلـف مـن خـلال مـصدر الأزرقـي بروايـة علـي بـن أبـي طالـب رضـي الله عنـه الـتي يقـول فيهـا أن الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم تنـاول دلـوا مـن بئـر زمـزم فـشرب منـه ثـم مـجّ فيـه مـن فيـه المبـارك ثـم أفرغـه في بئـر زمـزم . ويختتم هذا العنصر بالأحاديث النبوية الواردة في فضل زمزم وبركته .

٥ / صفة مكة :

بعـد الانتهـاء مـن ذكـر المـسجد الحـرام مـن جميـع الجوانـب ومـا احتـوى عليـه هـذا المـسجد، يعـود صـاحب المخطـوط أبـو عبـد الله المحجـوب إلى الحـديث في فـصل كامـل عـن مكـة كلـها بأوديتهـا

وجبالها المحيطة بها والقريبة منها وكذلك معالم الحج .

يبدأ بوصف مكة بصفة عامة على أنها عبارة عن واد كما جاء في القرآن الكريم. ويتجه هذا الوادي من المشرق إلى المغرب طولا . أما عن طول مكة و عرضها فإن المؤلف يقول إن الأزرقي والبكري لم يذكرا ذلك واستنادا إلى رواية مروية يقول إن طول مكة من باب المعلى إلى حومة باب المسفل ثلثا ميل وثلاثة أرباع الميل تقريبا ،وعرضها من سفح جبل قعيقعان بجوفها إلى جبل الخندمة بجنوبها أقل من نصف ميل.

ثم يذكر أبواب مكة وأن عددها يتحدد ، منذ أزمان إلى الفترة التي يعيش فيها ، في ثلاثة أبواب هي باب المعلى وباب المسفل وباب الشبيكة . ويصف هذه الأبواب فيقول بأن ليس لها سور ولا مصارع ولا إغلاق وإنما هي فجاج بين الجبال وعليها أقواس يدخل الناس منها ويخرجون وتسمى أبوابا .

وينتقل إلى وصف الدور والمنازل المحيطة بالمسجد الحرام ويقول بأن بناءها يتم في جميع الجبال المحيطة بوادي مكة وهي جبل أبو قبيس وجبل الصفا وجبل المروة وجبل قعيقعان، وأنها متراكبة بعضها فوق بعض، وهنا يشبهها المؤلف بالمنازل والدور الموجودة في مدينة بجاية بالجزائر .

يقف صاحب المخطوط في فقرة تالية لينبه إلى العدد الهائل من الحجاج الوافدين إلى مكة في موسم الحج من جميع بقاع الدنيا وينزلون في هذا الوادي المبارك بإبلهم وخيامهم وكيف أن هذه البقعة المباركة تسع كل هذه الأعداد الهائلة ، ويصف ذلك بعجائب الدنيا

وعظيم آيات الإسلام . ثم يذكر عدد الحجاج الذين يفدون كل موسم حيث يتراوح عددهم في ستمائة ألف نسمة وذلك حسب الأعوام قد يزيد هذا العدد أو ينقص .

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى ذكر الجبال المحيطة بمكة واحدا واحدا . فيقول بأن أعظمها وأشهرها هو جبل أبو قبيس ويقع في شرق مكة منحرفا نحو الجنوب كما يذكر أسباب تسميته بهذا الإسم . فحسب مصدر أبو عبيد البكري يقول المؤلف إن سبب تسميته بأبي قبيس ترجع إلى أن أول من اتخذ البناء فيه رجل من مُدحج أو من إياد يدعى أبو قبيس . وحسب رواية أخرى غير معروفة فإن هذه التسمية ترجع إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

أما الجبل الثاني فيذكر المؤلف أنه الجبل الأحمر الذي يقع، حسب تحديده، في غرب مكة، ويضيف بأن بعض الروايات يقول بأنه هو جبل قُعيقِعان .

والجبل الثالث هو جبل الصفا الذي يقول عنه بأنه ملاصق لجبل أبي قبيس . ويقابل جبل الصفا جبل المروة وهو في شرق مكة . وهنا يستند المؤلف إلى مصدر الأزرقي الذي حدد المسافة بين الصفا والمروة في سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعا ونصف ذراع، وهذا هو المسعى الذي يقطعه الحجاج بين هذين الجبلين . وعرض المسعى خمسة وثلاثون ذراعا ونصف ذراع . ويعلق المؤلف على قياس العرض حيث يقول بأنه يظن أن الأزرقي يعني وسط المسعى، لأن أعلاه وأسفله، يؤكد المؤلف، أنه أعرض من هذا القياس الذي ذكره الأزرقي .

ويسترسل في الكلام عن جبل الصفا والمروة استنادا بالخصوص

إلى الأزرقي والبكري ليتحدث عن بناء الأدراج التي حدثت في جبل الصفا والمروة على مرّ العصور ابتداء من صدر الإسلام . وفي آخر هذه الفقرة يقف صاحب المخطوط ليبين أن في الفترة التي يعاصرها لم يزل في جبل الصفا درجات يمكن من خلال أعلاهن مشاهدة الكعبة كما ذكر كذلك الأزرقي والبكري . أما جبل المروة فلم يبق فيه سوى درجة واحدة مستطيلة يصعد الساعي عليها ولا يقدر على مشاهدة الكعبة لبعد ذلك الموضع عنها وعن المسجد الحرام وكذلك بسبب كثرة البنايات الحائلة بين الساعين وبين الكعبة ، حسب ما شاهده وعاينه المؤلف بنفسه .

بعد ذلك يستمر أبو عبد الله المحجوب في ذكر الجبال المحيطة بمكة ويقول بأن قرب جبل المروة كان يوجد جبل صغير يسمى حَزْورة بإزاء سوق مكة في الجاهلية . ولما حصل في عهد الوليد والمهدي زيادات في مساحة المسجد الحرام، نحت هذا الجبل وأدخل موضعه في المسجد . كما أن هناك جبل قيقعان الذي يقول عنه بأنه أكبر من جبل المروة .

وبقرب مكة والمسجد الحرام، يقول المؤلف، يوجد جبل يسمى الجبل الأحمر الذي قال عنه البكري بأنه كان يسمى في الجاهلية بالأجرب . ويسترسل المؤلف ذاكرا ، حسب ظنه ، أن قريشا كانوا يتطيرون من هذه التسمية فسموه الأحمر نظرا لحمرة ظاهرة في لونه ، وما زال يحمل هذه التسمية إلى عهد المؤلف كما يذكر بنفسه .

وفي الفقرة الأخيرة من هذا العنصر يذكر المحجوب الجبال المحيطة بخارج مكة . ففي جنوبها ، يقول، يوجد جبل الخَنْدمة وهو

مشرف على الجبل المسمى جبل أحياد . وهناك جبال أخرى يستند في ذكرها إلى رواية البكري، منها الجبل الأبيض والجبل الأعرج وغيرهما، إلا أن هذه الأسماء، كما يقول المؤلف، ذهبت من أهل هذه العصور . ويؤكد أن الذي بقي مشهورا ومعروفا من الجبال خارج محيط مكة منذ أول عهد الإسلام هو جبل حراء الذي كان يتعبد في غاره الرسول صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي عليه .

وفي وصف هذا الجبل يقول المؤلف استنادا إلى البكري أنه جبل منفرد من الجبال، بينه وبين مكة ميل ونصف عن يمين الذاهب من مكة إلى حنين . ودائما حسب البكري وابن جبير، يقول بأن حراء جبل صعب المرتقى شامخ العلو في السماء ولا يمكن الصعود إليه إلا من طريق واحد .

ويأتي بعد جبل حراء في الشهرة جبل ثور، ويذكر صاحب المخطوط حسب مصدر البكري، أن هذا الجبل يوجد في الجنوب عن مكة بينه وبينها ميل واحد وهو مشرف وشامخ في علوه يكون ارتفاعه نحو ميل وفي أعلاه الغار الذي دخله الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه في أول الهجرة . ويختتم وصف هذا الغار بذكر ما قاله ابن جبير بأن عرض فم الغار ثلثا شبر وطوله ذراع، وفيه عبرة لأولي الأبصار .

**٦ / معالم الحج :**

❖ أرض منى : يستهل صاحب المخطوط هذا العنصر بتحديد موقع منى فيقول بأنها في شرق مكة وبينهما ثلاثة أميال ونحوها . واستنادا إلى مصادر البكري والأزرقي، يتحدث المؤلف عن مقاييس

أرض منى . فحسب البكري أن المسافة من المسجد الحرام إلى الجمرة الثالثة القصوى من أرض منى أربعة أميال . وأما الأزرقي فيقول بأن بين جمرة العقبة والجمرة الوسطى التي تليها أربعمائة ذراع وسبعة وثمانون ذراعا واثنا عشر أصبعا . ومن الجمرة الوسطى التي تليها أربعمائة ذراع وسبعة وثمانون ذراعا واثنا عشر أصبعا من الجمرة الوسطى إلى الثالثة القصوى ثلاثمائة ذراع وثلاثة أذرع .

بعد ذلك يتحدث المؤلف عن أوصاف هذه الجمرات كلها . ثم ينتقل إلى وصف مسجد منى حسب مصدر الأزرقي الذي ذكر، حسب ما يطلعنا عليه المؤلف، أن في عصره كان مسجد منى يتميز بالأبهة وضخامة البناء، غير أن المؤلف المحجوب يقول بأنه حصل تخريب هذا المسجد فهو، أي المسجد، منذ أزمنة حتى فترة المؤلف لم يبق فيه إلا جدار غير طويل وفي أوسطه بناءان كصومعتين يقال إنهما جعلا علامة على موضع نزول الرسول صلى الله عليه وسلم ومصلاه بمنى .

❖ أرض المزدلفة : يذكر المؤلف أنها تحد وادي محسر من شرقه، وبها جبل قزح، ويبيّن أن كثيرا من العلماء قالوا بأن هذا الجبل هو المشعر الحرام المذكور في القرآن، بينما الإمام مالك يقول بأن مزدلفة كلها هي المشعر الحرام، وبذلك تقررت لها ثلاثة أسماء هي مزدلفة والمشعر الحرام وجُمع . وحسب ما يرويه المؤلف أن هذه التسمية الأخيرة تأتي من كون الحجاج يجتمعون فيها ليلة عيد النحر، وكذلك حسب رواية أخرى يأتي بها المؤلف أنها سميت بذلك نظرا لاجتماع آدم وحواء بها بعد هبوطهما من الجنة .

وفي فقرة موالية يتعجب صاحب المخطوط من كون الأزرقي

والبكـري لم يـذكرا طـول مزدلفـة وعرضـها وبالتـالي يقـول بأنـه حـسب معاينتـه فـإن طـول أرض مزدلفـة يقـرب مـن مـيلين وعرضـها بـين الجبـال الـتي تحـدها مائـة ذراع ونحوهـا . غـير أن الأزرقـي والبكـري، كمـا يقـول المؤلـف، تحـدثا عـن ضـخامة مـسجد مزدلفـة، غـير أن هـذا المـسجد وجـده المؤلـف في فترتـه صـغير البنـاء وعليـه بـاب مغلـق المـصاريع يـصعد إليـه بـدرجات قليلـة، ويقـول بـأن كـل المـساجد في منـى ومزدلفـة وعرفـات إنمـا جعلوهـا علامـة علـى نـزول الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم بتلـك البقـاع في حجة الوداع .

ويـستأنف أبـو عبـد الله المحجـوب وصـفه لأرض مزدلفـة فيقـول بـأن في طـرف شـرقها جـبلان يكتنفـان محجـة الطريـق منهـا إلى عرفـات لا مـسلك للنـاس إلا مـن بينهمـا، وهمـا المأزمـان المـذكوران المـشهوران . واعتمـادا علـى مـصدر الأزرقـي يقـول المؤلـف بـأن المسافة بـين المـأزمين مائـة ذراع وذراعـا واثنـا عـشر أصـبعا . وحـسب نفـس المـصدر دائمـا يؤكـد المحجـوب أن النـاس إذا خرجـوا بـين المـأزمين مـشرقين فقـد خرجـوا مـن أرض مزدلفـة ودخلـوا أرض نمـرة وهـي متـصلة بـأرض عرفـة، وهـي إسـم جبـل هنالـك سميـت بـه الأرض . ويخـتم المؤلـف هـذا العنـصر مبينـا وجـود اخـتلاف بـين العلمـاء في كـون أرض نمـرة مـن عرفـات أم لا، ولكنـه يؤكـد أنـه حـصل الإجمـاع حـول أن نمـرة مـن حـرم مكـة، أمـا أرض عرفـة فإن بعضها في الحرم وبعضها في الحل .

❖ حـدود الحـرم : يـبين أبـو عبـد الله المحجـوب في بدايـة هـذا العنـصر أنـه لا خـلاف بـين الأمـة أن الله تعـالى جعـل مكـة حرمـا آمنـا، ثـم يتحـدث بتفـصيل عـن هـذا الحـرم . فيقـول بـأن أطـول مـسافاته مـن ناحيـة

الطول ذكرها مصدر تقي الدين الفاسي، وتبلغ واحد وعشرين ميلا عن مكة وهو حدّه من جهة ميقات الحديبية . غير أن المؤلف يستغرب من هذه المسافة ويقول بأنه من المعلوم عند أئمة هذا الشأن أن بُعد الحديبية عن مكة اثنا عشر ميلا ، وبُعد ميقات قرن الثعالب الذي لجهة العراق تسعة أميال وبُعد ميقات الجعرانية كذلك . ويسترسل قائلا أن آخر حدود الحرم بعرفات بُعده عن مكة عشرة أميال وأقصر مسافات الحرم حدّه الذي من جهة التنعيم ستة أميال من مكة وكذلك حدّ الميقات الذي لجهة بطن مرّ، والذي يُعرف كما يقول المؤلف في عصره بمسجد عائشة وميمونة ، فإنه على ستة أميال من مكة . ويؤكد بالتالي أن لا أحدا يجاوز نصاب هذا الحرم المبارك في جميع هذه المواقيت ذاهبا إلى مكة إلا أن يحرم بحجة أو عمرة سوى، كما يقول، الحطابين وأمثالهم من المتكررين على سوق مكة .

بعد ذلك يبيّن المؤلف كيف اختلفت المصادر والروايات في سبب تحديد هذا الحرم بهذه الحدود وحصر مسافاتها . فيبدأ بذكر ما رواه الأزرقي في أن أصل ذلك يعود إلى حيث انتهى ضياء الحجر الأسود عند أول نزوله من الجنة . وحسب رواية أخرى حيث بلغ ضياء قبة الياقوت التي أنزلت في موضع الكعبة . وحسب رواية ثالثة أن هذه الحدود تعود إلى حيث وقفت الملائكة لحراسة آدم عليه السلام من الشياطين حيث كان آدم بمكة . ويختم صاحب المخطوط هذه المسألة بقوله إن هذه الروايات هي شبه استحسان وتضعف من جهة النقل . ويحسم الموضوع قائلا إن الأصل المعول عليه هو أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فعلمهما مناسك الحج وأفعاله في جميع معالمه ثم أوقفهما على حدود

الحرم وحصر مسافته . ومنذ ذلك الوقت، يقول المؤلف، لم يزل سكان مكة يحافظون على تلك الحدود إلى زمن قريش . ثم لما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وناصبه كفار قريش العداوة، أرسلوا سفهاءهم واقتلعوا أعلام حدود الحرم وأتلفوها، وهذه الأعلام، كما يذكر المؤلف، كانت عبارة عن أخشاب غليظة يتخذونها في مواضع معلومة أنها آخر الحرم .

وفي نفس السياق يسترسل أبو عبد الله المحجوب في ذكر رواية الأزرقي التي توضح كيف حزن النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر غير أن مشيئة الله تعالى جعلت أحد كبراء قريش يرى في منامه كيف سيكون ضياع قريش بسبب هذا الفعل، مما جعل قريش تتخوف من هذا الأمر وأجمعوا على ردّ أعلام حدود الحرم، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم وقال له جبريل أنهم ردّوها على حدود إبراهيم وإسماعيل وأن الملائكة هي التي تحكمت في أيديهم عندما كانوا يضعون أعلام هذه الحدود .

بعد هذه الرواية يقول المؤلف أن أعلام هذه الحدود تمّ تجديدها في عهد خلافة عمر رضي الله عنه، ولما توسعت رقعة الإسلام في عهد معاوية اعتنى بهذه الأعلام فتركها من خشب وبنا لها أعلاما كالأبراج بالطين والحجر، وتبعه على ذلك ملوك الإسلام ولم يزالوا يجددون بناءها جيلا بعد جيل إلى عصر المؤلف كما يذكر ذلك . ويؤكد أنه شاهد بعرفات منها بناءان أعلاهما مستدير وكأنهما برجان فمن جاوزهما ذاهبا إلى جهة موقف الناس بعرفات فقد دخل في الحل ومن جاوزهما ذاهبا إلى مزدلفة ثم إلى منى ومكة فقد دخل في الحرم .

❖ ذكـر عرفـات : يختـتم صـاحب المخطـوط ذكـر معـالم الحـج بالحـديث عـن أرض عرفـات، فيـصفها حـسب مـشاهدته، بأنها أرض فـسيحة الأرجـاء قـد أحاطـت بهـا الجبـال مـن جميـع جهاتهـا وفي وسـطها جبـل متوسـط بـين الكـبر والـصغر ويتـصل بـه جـبلان صـغيران، وبـين هـذه الجبـال الثلاثـة، يقـول المؤلـف، وقـف رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم في حجّـة الـوداع، كمـا يقـول بـأن هـذا الموضـع يقـف بـه أمـراء الحجـاج إلى هذه الفترة التي يعاصرها .

وبعـد هـذا الوصـف الـذي اعتمـد فيـه علـى المـشاهدة، يـأتي بوصـف أرض عرفـات اعتمـادا علـى رحلـة ابـن جـبير، فيقـول إن هـذا الأخـير ذكـر أن أرض عرفـات بـسيطة فيحـاء واسـعة الأكنـاف والأرجـاء لـو اجتمـع بهـا أهـل الـدنيا لـوعتهم . غـير أن المؤلـف يعلـق علـى هـذا الوصـف الأخـير بأنـه مبالغة وفيه كناية عن سعة هذه الأرض المباركة .

أمـا المـصادر الأخـرى كـالأزرقي والبكـري فيقـول المؤلـف بأنهمـا لم يتحـدثا عـن طـول وعـرض هـذه الأرض المباركـة كمـا فعلـوا مـع معـالم الحج الأخرى .

أمـا المـسافة بـين مكـة وعرفـات فيقـول إن ابـن جـبير حـددها في اثني عشر ميلا ونفس المسافة ذكرها البكري .

وفي الأخـير يـتكلم أبـو عبـد الله المحجـوب عـن إحـدى آيـات الله الـتي ظهـرت بـأرض عرفـات في فترتـه ويحـددها بـصفة عامـة في عـام بـضع وسـبعين وثمانمائـة وتتمثـل في ظهـور عـين مـاء عـذب، غـزر ماؤهـا وبنيـت عليهـا مـصانع انتفـع الحجـاج بهـا حتـى تـواترت الأخبـار عـن هـذه الآيـة العظيمة في كل الآفاق .

ويختـتم صـاحب المخطـوط هـذا العنـصر قـائلا أن هـذه نهايـة ذكـر

مكة وأوصافها وجميع ما يتعلق بها من داخلها وخارجها، ليبدأ بعد ذلك الحديث عن المدينة المنورة .

**III - صورة مكة والأماكن المقدسة فيها كما وردت في المخطوط :**

بعد استعراضنا لمعلومات المخطوط كما دونها صاحبه، تتضح لنا المكانة التي حظيت بها مكة المكرمة والمرافق الدينية فيها، حيث خصص لها المؤلف أبو عبد الله محمد المحجوب ما يناهز عن أربعة وثلاثين صفحة تكلم فيها عن مستويات شملت بالأخص التاريخ والعمران والميدان الديني .

وللاستدلال على ذلك نرجع إلى مضمون ومحتوى المخطوط ونتفحص الجزء الأول الخاص بمكة والأماكن المقدسة فيها، ليتجلى لنا النصيب الذي حظيت به عند المؤلف، ونقوم بترتيب وتنظيم هذه المعلومات على الشكل التالي :

١ / مكة المكرمة :

- ذكر مكة ( من صفحة ٢ إلى صفحة ٥ ) [١].

- مياه مكة من غير زمزم ( من صفحة ٢٦ إلى صفحة ٢٧ ).

- صفة مكة : الوادي، أبوابها، الجبال المحيطة بها، الجبال القريبة منها ( من صفحة ٢٧ إلى صفحة ٣٠ ) .

---

١ - تنبغي الإشارة هنا أن أرقام الصفحات تخص الأرقام الواردة في صفحات المخطوط المعتمد في هذه الدراسة.

٢ / الأماكن المقدسة بمكة :

أ ـ الكعبة : ( من صفحة ٤ إلى صفحة ١٠ ) .

- بناء إبراهيم للكعبة ( صفحة ٥ ) .
- مقاييس الكعبة عند بنائها من طرف إبراهيم ( صفحة ٥ )
- تجديد قصي لبناء الكعبة ومن بعده ( من صفحة ٧ إلى صفحة ١٠ ) .

ب ـ معالم الكعبة :

- الحجر الأسود ( من صفحة ١٠ إلى صفحة ١٢ ) .
- باب الكعبة ( صفحة ١٢ ) .
- ملتزم الكعبة ( من صفحة ١٢ إلى صفحة ١٣ ) .
- سقف الكعبة وميزابها ( صفحة ١٣ ) .
- حجر الكعبة وركنها اليماني ( من صفحة ١٣ إلى صفحة ١٦ )
- لوحة تخطيطية للكعبة ( صفحة ١٤ )

ج ـ المعالم القريبة من الكعبة :

- مقام إبراهيم ( من صفحة ١٨ إلى صفحة ٢١ ) .
- مُطاف الكعبة ( صفحة ٢١ ) .
- حطيم الكعبة ( صفحة ٢١ ) .

د ـ المسجد الحرام : بدايته ونهايته : (من صفحة ٢١ إلى صفحة ٢٣ ) .

- مساحة المسجد الحرام ( من صفحة ٢٣ إلى صفحة ٢٤ ) .

- صوامع المسجد الحرام ( صفحة ٢٤ ) .
- البيوت المبنية بصحن المسجد الحرام ( من صفحة ٢٤ إلى صفحة ٢٥ ) .
- بئر زمزم : صفتها وصفة حجرتها وقربها من الكعبة ( صفحة ٢٥ ) .

هـ - معالم الحج :

- أرض منى ( من صفحة ٣٠ إلى صفحة ٣٢ ) .
- أرض مزدلفة ( صفحة ٣٢ ) .
- أرض عرفات ( من صفحة ٣٤ إلى صفحة ٣٥ ) .
- حدود الحرم ( من صفحة ٣٢ إلى صفحة ٣٤ ) .

عندما نلقي نظرة أولية وسريعة على هذه العناوين الجزئية المدرجة في كل عنصر أساسي على حدة، يمكن لنا الخروج بالملاحظات الأساسية التالية :

أولا ، التغطية الشاملة التي قام بها أبو عبد الله محمد المحجوب لكل الجوانب ولكل المستويات الخاصة بمكة المكرمة والمرافق الدينية فيها .

ثانيا ، يمكن الحديث عن وجود نسق موضوعي يربط جل المعلومات مع بعضها البعض في وحدة متكاملة . وهذا ينطبق على كل العناصر الأساسية ما عدا في العنصر الأول الخاص بمكة حيث يبدأ الحديث عن مكة المكرمة ثم يتوقف ليستأنفه في الصفحة ٢٧ من المخطوط، فيتكلم عن صفتها وأبوابها والجبال المحيطة بها وغير ذلك.

بالنسبة للملاحظة الأولى يمكن ربطها بالمنهجية التي اتبعها المؤلف والمتمثلة في تجميع المعلومات حول مكة والمرافق الدينية فيها اعتمادا على ثلاثة مصادر .

الأولى وهي الكتب الأساسية التي جمع منها المعلومات حيث يقول بصددها :" أولها كتاب تاريخ مكة وأخبارها للشيخ الإمام الثبت الرواية أبي الوليد محمد بن عبد اللّه الأزرقي وهو مكي المولد والمنشأ والوفاة ... ومنها كتاب الحافظ أبي عبد الله الفاكهي : الجامع لأخبار الحرمين الشريفين، ومنها كتاب شرح السيرة النبوية الكريمة للحافظ أبي القاسم السهيلي، ومنها كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري، ومنها كتاب رحلة الفقيه الأديب أبي الحسن بن جبير الأندلسي، ومنها كتاب المناسك للفقيه الأفضل السعيد بجوار قبر المصطفى أبو عبد الله محمد بن فرحون، ومنها كتاب تهييج الغرام إلى البيت الحرام للفقيه الحافظ تقي الدين الفاسي ".[١] .

ومن خلال هذا الجرد تظهر لنا أهمية هذه المصادر وتنوعها ، فقد اعتمد المحجوب على المصادر الخاصة بتاريخ مكة والحرمين الشريفين، كما اعتمد على المصادر الخاصة بالسيرة النبوية والمصادر الفقهية وكذلك على الرحلات التي ذكرت أخبار مكة والبيت الحرام .

المصادر الثانية التي استقى المؤلف منها معلوماته تتعلق بالمصادر الشفوية التي ذكرها قائلا :" ..سوى ما أنقله عن غير هؤلاء من أكابر

---

١ نفسه، ص.١ .

العلماء وأفاضل المحدثين والمصنفين "[١] .

والمصدر الثالث يتمثل في اعتماد المؤلف على المعاينة والمشاهدة الحيّة كما يقول :" ثم أذيل ما شاهدته من أوصاف الحرمين في عام حجتي عام ستين وثمانمائة ".[٢] .

هذا التنوع في المصادر هو الذي دفع المؤلف إلى القيام بهذه التغطية الشاملة لكل الجوانب المتعلقة بمكة والمرافق الدينية فيها دون إغفال أية صغيرة أو كبيرة وكذلك تحري الدقة في الوصف خصوصا وأن هذا الوصف يتعلق بأعلى الأماكن قدسية وأغلاها في نفوس المسلمين .

كما يمكن لنا إضافة عنصر آخر يمكن اعتباره حافزا مهما جعل المحجوب يتحرى الدقة ذلك أنه في عصره اعتُبر هو العالم الأفضل والأنسب في جمع المعلومات حول هذه الأماكن المقدسة عندما حصل الخلاف بين الدارسين في عصره حول معلومات وأخبار بلاد الحرمين الشريفين، وهذا ما ذكره في مقدمة كتابه بقوله :" فإن بعض المجالس المعظمة قد جرى فيها ذكر مكة المشرفة المكرمة ووقع الخلاف في وصفها وقيس مساحتها وصفة المسجد الحرام الذي بساحتها وغير ذلك من أخبارها . فبلغني ذلك بواسطة بعض العدول والمدرسين للأعلام . ورغب مني أن أبحث عن أوصاف هذا البلد الحرام . ولما كنت جهينة هذه الأخبار، شديد العناية بهذه الآثار لأجل تعلقها بحرمة مولانا الخدوم الأعظم نبينا محمد المصطفى

١ ـ نفسه ونفس الصفحة .

٢ ـ نفسه، ص. ٢ .

المعظم صلى الله عليه وسلم . فعزمت أن أجمع من أخبار هذين الحرمين الشريفين ما يحسن ذكره ويعظم إن شاء الله أجره . "[١] .

وبناء على هذه الملاحظة الأولى، يمكن لنا الرجوع إلى متن المخطوط لنتقفى آثار هذه التغطية الشاملة التي أدرجها المؤلف حول مكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها ، ونستأنس ببعض الأمثلة للاستدلال على هذه المسألة .

١ / صورة مكة :

يمكن تصنيف المعلومات التي سجلها أبو عبد الله المحجوب في كتابه حول مكة المكرمة إلى ثلاثة محاور : المحور الأول يهم الجانب التاريخي، والمحور الثاني يهم الجانب العمراني والسكاني والمحور الثالث يتعلق بالجانب الجغرافي .

فيما يخص الجانب التاريخي نجد المؤلف قد رسم لنا صورة مكة في حقبتين : الحقبة الأولى تتعلق بمكة منذ الأزل إلى عهد إبراهيم عليه السلام، ثم الحقبة الثانية تشمل فترة النبي إبراهيم .

فيتكلم المؤلف عن إيجاد مكة بقوله :" إن الله سبحانه دحا بلد مكة من تحت الكعبة ودحا الأرض من تحت مكة ، وهذا عند جمهور المفسرين معنى تسمية مكة في القرآن بأم القرى "[٢] .

وفي فقرة أخرى يؤكد المحجوب أن مكة دخل إليها جل الأنبياء بداية بالنبي آدم عليه السلام فيقول في هذا الصدد :" ولا خلاف في أن

١ ـ نفسه، ص. ١ .

٢ ـ نفسه، ص. ٢ .

هبوطه ( يعني آدم ) كان بأرض الهند ، فأمره الله أن يقصد بلد مكة ويطوف بقبة الياقوت التي بها ويعظمها ، ففعل ذلك وقيل إنه كان يتكرر من أرض الهند إلى الحج بمكة وفي حرمها اجتمع بزوجه حواء وقيل خارج الحرم، وروي أن نوحا عليه السلام .. سكن بمكة حتى مات بها ودفن في مسجد الخيف من أرض منى . [١] . وذكر ابن هشام في كتابه التيجان أن هودا عليه السلام حج إليها .. ومعه يعرب بن قحطان .. وروى الأزرقي أن بناء الكعبة من شرقها دفن به سبعون نبيا وقيل سبعمائة منهم نوح وهود ولوط وصالح وشعيب عليهم السلام لأن هؤلاء الرسل عندما هلكت أممهم قصدوا مكة فسكنوها حتى ماتوا بها ، والأنبياء لا يفعلون مثل هذا إلا بوحي من الله عزّ وجل إليهم ." [٢] .

ويتعرض المؤلف إلى ذكر مكة في عهد النبي إبراهيم عليه السلام وخصوصا من الناحية السكانية . فيركز على القصة المذكورة في القرآن والتي تشير إلى نزول إبراهيم وزوجه هاجر وولده إسماعيل بوادي مكة المبارك . [٣]. ولم يكتف بهذه المسألة ، بل قدم لنا سردا حول القبائل التي اعتمرت مكة :" وقد كان إسماعيل عليه السلام وأولاده وأصهاره من جرهم والعمالقة أول من اعتمر وادي مكة وبنوا به المنازل والدور والأعرشة للظلال". [٤]

١ ـ نفسه ، نفس الصفحة .

٢ ـ نفسه ، ص. ٣ .

٣ ـ نفسه ، ص. ٤ .

٤ ـ نفسه ، ص. ٥ .

أما عن الجانب الجغرافي لمكة فإن المؤلف المحجوب قد تكلم عنه في صفحات أخرى من المخطوط . فيتطرق أولا إلى الحديث عن المياه الموجودة بمكة من غير ماء زمزم . فيذكر لنا بشيء من التفصيل الحقب التاريخية التي تم فيها حفر آبار المياه بمكة انطلاقا من فترة قبائل جرهم وقبائل خزاعة، ثم مرورا بقبيلة قريش ووصولا إلى فترة العباسيين حيث كثرت سبل المياه في مكة إلى غاية سنة ٨٣٠ هـ عندما تمّ من جديد إيصال مجاري المياه إلى مكة . وهنا يؤكد المؤلف على أن :" لأهل مكة بذلك الماء انتفاع عظيم في هذه العصور ." [١]

وأما عن كيفية جريان الماء إلى مكة فيعطي لنا صورة دقيقة لذلك بقوله :" فإنه ( أي الماء ) يستقر في صهاريج واسعة معدة له في بيت واسع بداخل باب المعلى فتستقي الناس منه حاجتهم بالليل والنهار، ثم يتسرب الماء في مجاري تحت الأرض حتى يخرج لخارج باب المعلى وله هنالك مصنع سلطاني وهو مسقيتان عميقتان واسعتان متنافذتان فيصوب الماء فيهما ليلا ونهارا حتى يمتليا ومنهما انتفاع جميع أهل الموسم القادمين على مكة لنفسهم وبهائمهم، وقد شربت من هذا الماء المبارك مرارا فما شربت مثله عذوبة ولذاذة وطيب مطعم ." [٢]

وفي فصل كامل يرسم المحجوب صورة مكة بكونها واد كما جاء في القرآن الكريم، ويحدد جهته قائلا :" ينصب من المشرق إلى المغرب طولا ." [٣] .كما يحدد طول مكة وعرضها :" وقيل إن طول

---

١ ـ نفسه، ص. ٢٦ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه، ص. ٢٧ .

مكة من حومة باب المعلى إلى حومة باب المسفل ثلثا ميل وثلاثة أرباع الميل بتقريب وعرضها من سفح جبل الخندمة بجنوبها أقل من نصف ميل ." [١]

أما عن أبواب مكة فيقول :" والذي ذكرنا من أبوابها هي الآن ومنذ أزمان ثلاثة أبواب : باب المعلى وباب المسفل وباب الشبيكة وليست في سور ولا مصارع عليها ولا إغلاق وإنما هي فجاج بين الجبال وعليها أقواس منها يدخل الداخل ويخرج الخارج وتسمى أبوابا ." [٢]

وفي الفقرة الأخيرة يتعرض بالتفصيل إلى ذكر عدد الجبال المحيطة بمكة وبخارج مكة ويحدد موقعها ، فيذكرها كما يلي :" فأما الجبال التي أحاطت بمكة فأعظمها وأشهرها جبل أبي قبيس وهو في شرق مكة منحرفا للجنوب يواجه الحجر الأسود من الكعبة ... والأخشب الثاني هو الجبل الأحمر الذي في غربها وقيل بل هو جبل قُعيقعان " [٣] . جبل الصفا وهو ملاصق لأبي قبيس وكان جبل الصفا في الجاهلية يقال له أنف أبي قبيس لاتصاله به وصغر جرمه عنه . ثم يقابل جبل الصفا من جهة جوفيه جبل المروة وهو في طرف شرقي مكة .. وبينه وبين الصفا طريق محجة واسعة هي المسعى بينهما " [٤] وقد كان بقرب جبل المروة جُبيل صغير يسمى حَزْورة وكان بإزاء سوق مكة في الجاهلية ، فلما كانت زيادات مساحات المسجد الحرام في مدة الوليد والمهدي نُحت هذا الجُبيل كله ودخل موضعه في المسجد

١ ـ نفسه ، ص. ٢٨ .

٢ ـ نفسه ، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه ، نفس الصفحة .

٤ ـ نفسه ، ص. ٢٩ .

ويتصل بجبل المروة من غربه "[١] .

بعد ذلك يختتم المؤلف هذه الصورة الخاصة بالجبال المحيطة بمكة ويسجل ما شاهده بنفسه قائلا :" فهذه جبال المسجد الحرام المحيطة به القريبة منه بحيث أن الجالس بالمسجد يشاهد تصرف الناس الساكنين بهذه الجبال، وقد رأينا الفقهاء والعدول من أهل مكة صعدوا على قُنّة أبي قبيس يلتمسون رؤية هلال ذي الحجة من ذلك العام ونحن نشاهدهم من صحن المسجد ".[٢]

أما عن الجبال الموجودة بخارج مكة فإن المحجوب ركز في حديثه بالخصوص على جبل حراء وجبل ثور، وذلك لمكانتهما في تاريخ البعثة النبوية . فالجبل الأول هو الذي، كما يقول المؤلف، " كان مولانا الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم يتعبد بغار فيه قبل أن يوحى إليه بإلهام الله وتوفيقه، ثم فاجأه الوحي العزيز وبدايته الكريمة بذلك الغار المبارك من ذلك الجبل المبارك "[٣] . والجبل الثاني " في أعلاه الغار الذي دخله المصطفى صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق في أول الهجرة "[٤] .

---

١ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٢ ـ نفسه، ص. ٣٠ .

٣ ـ نفسه، نفس الصفحة.

٤ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٢ / صورة الأماكن المقدسة في مكة :

أ ـ الكعبة : في الحقيقة أن المؤلف أبو عبد الله محمد المحجوب يدرج الحديث عن الكعبة في مستهل حديثه عن مكة باعتبارها المكان المقدس الأول الذي بُني في هذه المدينة المكرمة .

وفي هذا الصدد أول مرحلة يتعرض للكلام عنها تتعلق بإعطاء نبذة تاريخية حول كيفية إيجاد الكعبة وكذلك بنائها قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام، فيقول مستندا إلى مصدر الأزرقي :" فالحاصل من الآثار التي أوردها أبو الوليد الأزرقي بأسانيده عن جلة الصحابة .. أن الله سبحانه اختار موضع الكعبة في أزله .. وأمر الملائكة أن يهبطوا من الجنة بقبة من ياقوت فيضعوها في موضع الكعبة وأن يطوفوا بها ويعظموها كما يفعلون بالبيت المعمور .. وعن علي كرم الله وجهه أن الكعبة في الأرض موازية للبيت المعمور في السماء .. فلم تزل الملائكة تطوف بقبة الياقوت التي كانت بموضع الكعبة حتى خلق الله آدم نبيه وصفيه عليه السلام وأهبطه إلى الأرض وجعله فيها خليفة ." [١]

وفيما يتعلق ببناء الكعبة نجده يقول :" ولما تعلق علم الله القديم أن قبة ياقوت الجنة لا يدوم بقاؤها في الأرض أمر الملائكة فرفعوها وردوها إلى الجنة .. ثم أمر الله آدم أن يبني أساس الكعبة على مقدار قبة الياقوت وفي موضعها سواء، ففعل ذلك وأعانته الملائكة بالوحي إليهم في ذلك ." [٢] " ثم رفع آدم البناء فوق ذلك الأساس بمقدار ذراعين

---

١ ـ نفسه، ص. ٢ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

أو ثلاثة لكيلا يطمس الأساس ." [١]

وفي فقرة موالية يرسم المحجوب صورة الكعبة وما حصل لها بعد الطوفان فيقول :" وأما بعد الطوفان فإن جدراتها تهدمت بمائه وصار موضعها ربوة حمراء عطرة معلومة معظمة عند فضلاء الأمم المؤمنة التي كانت بين آدم وإبراهيم عليهما السلام ." [٢]

إلى جانب ذلك تعرض المؤلف إلى الحديث بالتفصيل عن الكعبة في عهد إبراهيم وذلك في عنصر مستقل .

فتكلم عن بناء الكعبة من طرف إبراهيم كما وردت في القرآن الكريم . ثم تعرض في فقرة موالية إلى ذكر مقاييس الكعبة كما بناها إبراهيم بقوله : " ولما بنا إبراهيم عليه السلام الكعبة جعل طولها في الهوا تسعة أذرع وهذا أيضا لا خلاف فيه وجعل طولها من الشمال إلى الجنوب ثلاثين ذراعا وعرضها من الشرق إلى الغرب اثنين وعشرين ذراعا ." [٣]

أما عن صفة الكعبة كما بناها إبراهيم فيقول عنها : " ولا خلاف أن إبراهيم عليه السلام لم يجعل للكعبة بابا ولا سقفا ولا ميزابا وهو الذي وضع الحجر الأسود بموضعه منها حيث جاءه جبريل وناداه إليه جبل أبو قبيس ." [٤]

واستمرارا في هذا الموضوع، يقدم لنا المحجوب تفاصيل حول بناء

---

١ ـ نفسه، ص. ٣ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه، ص. ٥ .

٤ ـ نفسه، نفس الصفحة .

وتجديد الكعبة عبر فترات تاريخية انطلاقا من وفاة النبي إبراهيم عليه السلام إلى فترة قصي بن كلاب [١] . ثم بعد ذلك في فترات تاريخية متلاحقة، نقف في البداية عند زمن قريش حيث يقدم لنا صورتها كما يلي :" ثم تهدمت - يعني الكعبة - فبنتها قريش والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم قبل أن يوحى إليه . ولما عزموا على تجديد بنائها جمعوا مال النفقة لذلك من عندهم وأخرجت كل بطن منهم مالا معينا وأوصاهم أكابرهم أن لا يجعلوا في المال الذي عينوه لذلك ربا ولا غصبا ولا شيئا مما يخالف شريعة إبراهيم عليه السلام ... ثم نقضوا بيت الكعبة حتى كشفوا عن قواعد إبراهيم وأساس آدم ورفعوا بناءهم عليه ." [٢]. وعن مقاييس الكعبة كما بنتها قريش يقول: " ثم قصرت نفقتهم بفراغ المال الذي أعدوه للبناء فتركوا من جوف الكعبة ستة أذرع وشبرا وأقاموا جدار الكعبة من هنالك ناقصا عن أساس إبراهيم فصار طول الكعبة من الجوف إلى الجنوب ثلاثة وعشرين ذراعا كما تقدم ... فنقصت قريش منها ستة أذرع بل وشبرا ... ولا شك أن قريشا زادوا في ارتفاع الكعبة في الهوا تسعة أذرع فصار طولها ثمانية عشر ذراعا ." [٣]

وعن صفة الكعبة في زمن قريش يقول المؤلف :" ثم سقفت قريش الكعبة من غير خلاف في ذلك إما جددوه على قول البكري وإما أحدثوه على قول غيره وجعلوا لسقفها ميزابا يصوب إلى حجر

---

١ - نفسه، ص. ٦ و ٧ .

٢ - نفسه، ص. ٧ .

٣ - نفسه، نفس الصفحة .

إسماعيل وجعلوا لها بابا شرقيا عليه دفة واحدة وجعلوا بابها مرتفعا عن الأرض يصعد إليه بدرجات من خشب شبه المنبر." [١]

أما عن الفترة التاريخية اللاحقة التي تحدث فيها المؤلف عن تجديد الكعبة وصفتها فتتعلق بالفترة التي تلت البعثة النبوية وفترة الخلفاء الراشدون وزمن معاوية، وفي هذا الصدد يقول :" فلم تزل الكعبة على هذه الصفة حتى جاء الله بالإسلام وصارت مكة بفتح الله ونصره لإيالة الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلم يحدث في الكعبة شيئا لأجل ائتلاف لقلوب قريش حسبما ثبت في الصحيح. [٢] " وأما الخلفاء الراشدون فاقتدوا بنبيهم صلى الله عليه وسلم ولم يحدثوا في الكعبة شيئا، وتبعهم على ذلك معاوية." [٣]

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى فترة تاريخية لاحقة، وهي الفترة التي شهدت الفتنة التي وقعت بن يزيد بن معاوية وعبد الله ابن الزبير. وحول تجديد الكعبة من طرف ابن الزبير بعد وفاة اليزيد، يقدم أبو عبد الله المحجوب صورتها كما يلي :" فلم يبدأ بشيء - يعني ابن الزبير - قبل بناء الكعبة ... ثم أمر بنقضها فنقضت كلها حتى كشف عن أساس آدم وإبراهيم عليهما السلام ... ثم أقام البناء على جميع الأساس من جميع جهاته ووضع الحجر الأسود بموضعه." [٤]

أما عن صفة الكعبة ومقاييسها عندما جدد بناءها ابن الزبير

---

١ - نفسه، نفس الصفحة.

٢ - نفسه، نفس الصفحة.

٣ - نفسه، ص. ٨.

٤ - نفسه، نفس الصفحة.

فيذكرها المحجوب بقوله :" ثم جعل للكعبة بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وجعلهما ملتصقين بالأرض ... ولما تم ابن الزبير البناء من الكعبة على قواعد إبراهيم بلغت في الطول من الشمال إلى الجنوب ثلاثين ذراعا كما كانت في عهد إبراهيم عليه السلام وشاهدها ابن الزبير كذلك فاستقصر طول جدارها في الهوا فزادت فيه تسعة أذرع فصار طول الكعبة في الهواء سبعة وعشرين ذراعا لأن إبراهيم عليه السلام بناه تسعة أذرع وزادت فيه قريش تسعة أذرع ثم زاد فيه ابن الزبير تسعة أذرع ." [١]

أما المحطة التاريخية الأخيرة في تجديد بناء الكعبة فيقف بنا صاحب المخطوط عند فترة الحجاج فيقول عنها ما يلي :" فنقضها الحجاج من جوفيها وأخرج منها ستة أذرع ونحوها فجعلها حجرا للكعبة ثم أقام بناء جدار الكعبة من هنالك حتى أوصله بسقفها ورفع بابها الشرقي عن الأرض كما كان في زمن قريش وسد الباب الغربي الذي أحدثه ابن الزبير ."[٢]

ويختتم المؤلف هذا الموضوع ليتحدث عن صفة الكعبة في الزمن الذي يعاصره بقوله :" فالكعبة على هذه الصفة إلى الآن وبناء جميعها من عمل ابن الزبير إلا الجدار الجوفي منها وحوطة الحجر التي من ورائه والبابين اللذين بدل الحجاج للكعبة من شرقيها وغربيها."[٣]

بذلك يكون أبو عبد الله محمد المحجوب قد قام بتغطية شاملة وتفصيل دقيق حول بناء الكعبة وتجديدها ومقاييسها وصفتها عبر

---

١ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٢ ـ نفسه، ص. ٩ .

٣ ـ نفسه، نفس الصفحة .

فترات تاريخية مختلفة، انطلاقا من عهد إبراهيم عليه السلام إلى فترة الدولة الأموية عندما جدد بناءها الحجاج، ويقف في الفترة والزمن الذي يعاصره .

**ب ـ معالم الكعبة :**

يتبين لنا بعد اطلاعنا على المعلومات الواردة في المخطوط وترتيبها وتنظيمها أن المؤلف أبو عبد الله المحجوب بعدما أنهى الحديث عن الكعبة المشرفة من جميع الجهات انتقل إلى الحديث عما سماها بمعالم الكعبة مبتدئا بالحجر الأسود ثم باب الكعبة وملتزم الكعبة وسقف الكعبة وميزابها وحجر الكعبة وركنها اليماني ثم منهيا الحديث حول كسوة الكعبة .

بالنسبة للحجر الأسود يذكر لنا المؤلف مقاييس هذه المعلمة المقدسة باستناده في ذلك إلى مصدر الأزرقي والبكري فيقول :" وقال الأزرقي طول الحجر الأسود في جدار الكعبة ذراع وأربعة أصابع، وقال أبو عبيد البكري طوله ذراع وشبر وعرضه ثمانية وعشرون أصبعا ." [١]

أما عن باب الكعبة فيتكلم المحجوب عن صفتها ومقاييسها . فمن ناحية المقاييس يقول :" قال رحمه الله، يعني الأزرقي، أن ارتفاع باب الكعبة عن الأرض عشرة أشبار وبين الباب وبين الركن الذي فيه الحجر الأسود عشرة أشبار أيضا محققة " [٢] . "وقال الأزرقي طول فرجة باب الكعبة ستة أذرع وعشرة أصابع وعرضها ثلاثة أذرع وثمانية

---

١ ـ نفسه، ص. ١٠

٢ ـ نفسه، ص. ١٢ .

عشر أصبعا"[١]. وعن صفة باب الكعبة يقول :" وأول من جعل على باب الكعبة مصراعين اثنين عبد الله ابن الزبير وقد جعلهما من خشب رفيع وغشاهما بصفائح الفضة ثم جدد هذان المصراعان مرارا" [٢]. وعن مشاهدته ومعاينته يقول :" وقد شاهدنا هذين المصراعين في عام ستين وثمانمائة وقالوا لنا إنهما من خشب الصندل ورأينا عليهما صفائح من فضة مسمرة بمسامر من فضة وجميع ذلك مموه بالذهب ولهما نقارتان صنيعتان من فضة أيضا مموهة بالذهب ." [٣]

وفيما يخص ملتزم الكعبة فإن صاحب المخطوط يتحدث عنه باختصار محددا موقعه حسب ما ذكره الأزرقي وحسب رواية أخرى فيقول ما يلي :" الملتزم هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود من شرقي جدارها وهو عشرة أشبار محققة ." " وروي أنه في غرب جدار الكعبة وهو ما بين الركن اليماني وبابها الغربي المسدود ."ويختتم هذا الاختلاف بين الروايتين بتأكيده الشخصي قائلا :" والظاهر أن كليهما يسمى الملتزم، فالاحتياط أن يقصد كل واحد منهما بالدعاء والتبرك والله الموفق ." [٤]

أما عن سقف الكعبة وميزابها فإننا نجد المؤلف يتحدث عن صفتهما مستندا في البداية إلى مصادر مختلفة تشمل مصدر أبو عبيد البكري والأزرقي ورحلة ابن جبير وتقي الدين الفاسي وذلك كما

١ ـ نفسه، نفس الصفحة .
٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .
٣ ـ نفسه، نفس الصفحة .
٤ ـ نفسه، نفس الصفحة .

يلي: " ظاهر كلام أبي عبيد البكري أن قصيا أول من سقفها وقال إنه سقفها بخشب الدوم .. ولما جدد ابن الزبير بناء الكعبة جدد لها سقفا بارعا من خشب الساج وجعل ميزابها من رصاص . وقال الأزرقي أول من غشاه بالذهب الوليد بن عبد الملك وقال إن طول الميزاب في عهده وهو أواسط المائة الثالثة أربعة أذرع وعرضه ثمانية أصابع .. وقال ابن جبير في رحلته أنه وجده من نحاس مغشى بالذهب وطوله أربعة أذرع وعرضه شبر واحد . وقال تقي الدين الفاسي أول من جدد الميزاب الخليفة الناصر العباسي في أواسط المائة السادسة ." [١] . ويختتم هذا العنصر بما شاهده ورآه فيقول :" وقد شاهدت ميزاب الكعبة في عام حجي فرأيته وهو من ذهب خالص شديد اللمعان وعرضه أزيد من ذراع وطوله بارز عن جدار الكعبة أزيد من ذراعين ." [٢]

وفيما يتعلق بحجر الكعبة وركنها اليماني فقد تحدث المحجوب أولا عن مقاييس وصفة الحجر . فعن المقاييس يقول :" وقال الأزرقي طول الحجر من بابه الشرقي إلى بابه الغربي عشرون ذراعا وعرضه من جدار الكعبة تحت الميزاب إلى جداره هو سبعة عشر ذراعا وثمانية أصابع ومن هذا العرض ستة أذرع وشبر كلها من الكعبة ." [٣] . وفي فقرة أخرى من هذا العنصر يستدرك ذكر هذه المقاييس بقوله :" وقال الأزرقي طول جدار الحجر في الهوا ذراعان وثلاثة أصابع، وقال البكري عرض جدار الحجر ذراعان ينقصان

---

١ ـ نفسه، ص. ١٣ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه، نفس الصفحة .

أصبعين، انتهى كلامهما . وعندي أن طوله وعرضه اليوم لا يبلغ لهذا القياس والله أعلم . [١]

ويصف الحجر بقوله :" وشكل هذا الحجر مستدير ولذلك قال البكري كأنه نصف دائرة وعلى هذه الصفة بنته قريش ثم تبعهم الحجاج على ذلك ." [٢]. كما ذكر لنا في فقرة أخرى صفة الحجر بعد معاينته لها بقوله :" ونحن شاهدناه - يعني الحجر - في عام ستين وثمانمائة وهو مفروش بالرخام الملون غير مرقوم ولا مختلف صناعة النقش كما وصف ابن جبير ." [٣]

وفي هذا العنصر نجد المؤلف يدرج لنا صورة خطها بيده يقول عنها :" وهذه صورة الكعبة وحجرها تقريبا للأذهان والله تعالى أعلم ( انظر الصورة ) .ثم يعلق على هذه الصورة قائلا :" فالحجر تراه مستديرا وبينه وبين الكعبة فرجتان إحداهما في شرقه والأخرى في غربه وهما البابان اللذان قال الأزرقي عنهما بابه الشرقي وبابه الغربي، فلا باب هنالك ولا مصارع وإنما هما فرجتان يدخل الناس من إحداهما ويخرجون من الأخرى ." [٤]

أما عن الركن اليماني، فيحدد موقعه ويتكلم عن صفته [٥] . كما يذكر لنا مقاييسه بقوله :" ولم يذكر الأزرقي والبكري طوله

١ ـ نفسه، ص. ١٥ .
٢ ـ نفسه، ص. ١٣ .
٣ ـ نفسه، ص. ١٥ .
٤ ـ نفسه، ص. ١٤ .
٥ ـ نفسه، ص. ١٥ .

وعرضه وأنا أظن طوله أزيد من ذراع وعرضه أقل من شبر ." [١]

ويختتم المحجوب حديثه عن هذه المعالم بكلامه عن كسوة الكعبة، فنجده يعطي تفصيلا عن هذه الكسوة وصفتها وألوانها عبر فترات تاريخية مختلفة [٢]، ثم يختتم هذا الوصف بما شاهده في عام حجته قائلا أن كسوة الكعبة هي عبارة عن :" كسوة حرير سوداء في نسجها صناعة تختيم وفي أعالي وصائلها مقدار ذراع منسوج بالذهب ويظهر كأنه قلادة ذهب في عنق الكعبة إذا دار منتظما بها واتصلت وصائل الكسوة بالربط على جدراتها الكعبة ثم يعلقون على باب الكعبة قطعة من وصائل الكسوة عريضة أعرض من جميع وصائلها بحيث تستر عضادتي الباب وكلها منسوجة بالذهب ويسمونها البرقع، فعلى هذه الصفة هي كسوة الكعبة الآن منذ زمان وقد تحققت من جهة الذين لقيتهم بمصر من قضاتها وعدولها أن كسوة الكعبة تقام بالقاهرة من أوقاف عليها وأجرة حتى صار أكابر قضاتهم ونظار أحباسهم يتنافسون في ولايتها . ولا خلاف أن الكعبة مكسوة من داخلها كما هي مكسوة من خارجها إلا أن كسوة داخلها الآن من حرير أحمر فيما أخبرني به الذين دخلوها فإني لم أدخلها والله كل يوم هو في شأن " [٣].

أما عن المعالم الدينية القريبة من الكعبة فقد قدّم أبو عبد الله المحجوب صورة عن مقام إبراهيم كما ذكر مُطاف الكعبة وحطيم

١ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٢ ـ نفسه، ص . ١٦ و ١٧ .

٣ ـ نفسه، ص. ١٧ و ١٨ .

الكعبة . وفي كلامه عن مقام إبراهيم أعطى نبذة تفصيلية عن قدسية هذا المقام [١]، وفي سياق حديثه نقف على ما شاهده بنفسه ونقل صورته لنا وذلك بقوله :" وهذا الحجر المبارك قد شاهدناه بفضل الله وليس في لونه خضرة ولا دكنة ولكنه يضرب بياضه إلى الحمرة فهو أصهب اللون فيما يظهر والله أعلم ." [٢] وفي صفحة أخرى من المخطوط يقول :" وقد رأيت هذا الحجر المبارك في يوم النحر من عام حجتي فرأيت على سطح أعلاه صفيحة فضة مموهة بالذهب غائصة في أثر القدمين في عمقها فلم أعلم كيف التصقت تلك الصفيحة على ذلك الحجر الصلد وعندما فسد الزمان وخيف على هذا الحجر المبارك طوارق الحدثان لاسيما في عهد أعداء الله الملحدين من القرامطة والعبيديين جعل عليه شباك من حديد صنيع التخريم وجعلوه على مقداره ثم جعل فوق شباك الحديد شباك خشب أعظم جِرما من شباك الحديد كل ذلك مبالغة في صيانته وأن لا يوصل إليه . ثم تأنق الملوك المتأخرون في العناية به فأفرغوا على شباكه الأعلى كسوة حرير ونحن شاهدناها مختلطة السواد ببياض في بديع توريقها وإحكام صناعتها وشاهدناها محيطة على قدر الشباك وهو مضبب العلى ليس بمربع، فعلى هذه الصفة شاهدناه وليس يظهر الآن حجر المقام ولا يراه أحد من الناس البتة لأجل الشبابيك وكسوتها وإنما يراه من يحضر لانكشافه في وقت تبديل كسوته يوم عيد النحر... وفي هذا اليوم رأيته بعد طوافي للإفاضة فركعت عنده بعد الطواف وتمتعت

١ ـ نفسه، ص. ١٨ و ١٩ .

٢ ـ نفسه، ص. ١٨ .

بمشاهدة آيات الله البينات منه وهو بشباكيه وكسوته في بيت صغير مربع الجهات وسقفه قبة غير مرتفعة وفي هذا البيت وحواليه يركع الطائفون بالكعبة عند فراغهم من أسابيع طوافهم ." [١]

أما عن مُطاف الكعبة فقد نقل لنا المحجوب صورة هذا المكان طبقا لمشاهدته ومعاينته. فبعد تحديد موقعه بقوله :" وهو الذي - يعني مُطاف الكعبة - إذا طاف بها الطائفون مشوا فيه فهو محيط بالكعبة على استدارة ." [٢]، يذكر لنا المؤلف صفة هذا المكان كما يلي :" وكله مفروش بحجارة جيدة ... وليس بأرض المسجد الحرام كله شيء مفروش بالحجارة سواه وباقي المسجد محصب بحصباء يعوض في كل عام عند انقضاء مواسم الحج لأجل تلويث الجهال له . وعرض المطاف نحو عشرين ذراعا من جميع جهات الكعبة وهو مستدير الشكل بها وقد بنيت حواليه عرص وثيقة طول كل عرصة منها قدر قامة الإنسان وعرضت فوقها خشب فيها حلق حديد صغيرة تعلو فيها قناديل الكعبة لاستصباح الكعبة ومطافها ، وأخبرونا أن الزيت يبعث بها إليها وإلى مسجدها الحرام وإلى مسجد الرسول بالمدينة في كل عام مع أمير الحج وذلك من أحباس وافرة أكثرها ببلاد الشام ." [٣]

وفيما يتعلق بالمسجد الحرام الذي تطرق المؤلف المحجوب إلى الكلام عنه بعد فراغه من الحديث عن الأماكن المقدسة القريبة من الكعبة ، فإن الصورة التي نقلها لنا تهم حدود المسجد الحرام

١ - نفسه، ص. ٢٠ .

٢ - نفسه، ص. ٢١ .

٣ - نفسه، نفس الصفحة .

ومساحته والصوامع الموجودة فيه والبيوت المبنية بصحنه .

فعن صورة المسجد نقلها المؤلف كما يلي :" فحينئذ - يعني في عصر المهدي العباسي ــ ظهر اتساع هذا المسجد المبارك وتوسطت الكعبة بصحنه وجعل له ثلاث مجنبات متنافذات تظل خلقا كثيرا من الناس حسبما هي باقية مشاهدة إلى الآن ... والباقي الآن من الشرفات - يعني شرفات المسجد - عدد قليل بالجانب الشرقي منه فيما شاهدناه وذلك والله أعلم ذهب بطول المدا وتغير أغراض الأمراء ." [١]

كما ينقل لنا المؤلف صورة أخرى للمسجد الحرام تهم عدد السواري وصفتها ، أخذها من مصدرين عاشا فترتين مختلفتين ويتعلق الأمر بمصدر الأزرقي ومصدر تقي الدين الفاسي . فحسب المصدر الأول يقول صاحب المخطوط :" وقال الأزرقي عدد سواري الرخام بالمسجد الحرام أربعمائة وثمانون يزيد بعضها على بعض في الطول والغلظ، فأكثرها طوله عشرة أذرع وتدويرها ثلاثة أذرع ومنها أربع وأربعون ليست برخام ولكن مبنية بالحجارة الجيدة والطين ." وحسب المصدر الثاني يقول المحجوب :" وقال تقي الدين الفاسي إن جميع سواري الرخام التي كانت بغربي المسجد الحرام أصابها حريق شديد في منسلخ المائة الثامنة أو مفتتح التاسعة فاحترقت حينئذ سقف المجنبات القريبة كلها وسواريها وأقواسها ثم أعيدت عوض تلك السواري عرصات مبنية بالحجارة والطين والله المستعان ." [٢]

أما عن أبواب وصوامع المسجد الحرام فقد تحدث المحجوب عن

---

١ ـ نفسه، ص. ٢٣ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

أعدادها وصفتها وأسماء الأبواب [١] . كما نقل لنا صورة تفصيلية ووصف دقيق للبيوت الموجودة بصحن المسجد الحرام وذلك بقوله :" وتقدم وصف البيت الصغير الذي فيه حجر مقام إبراهيم فهو الأول، والبيت الثاني ذكروا لنا أنه مُعَدّ لاختزان آلات الاستصباح، وشاهدناهم يخرجون منه حسك الشمع وقناديل الزجاج . والبيت الثالث بيت حجرة زمزم وهو الذي فيه بئر زمزم كما يأتي وصفها . والبيت الرابع يسمى الآن قبّة الشراب لأن فيه خوابي كبار وأواني قلال وغيرها تملؤ من ماء زمزم كما يأتي فيروون الماء فيها ويبرد ، والقائمون بهذا البيت ومائه هم من ذرية العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، فخدامهم يسقون الماء من بئر زمزم ويصبونه في جذع نخل منقورٌ خاوٍ طرفه على عرصة في بيت زمزم وطرفه في بيت سقاية العباس، وإذا أفضى الماء إليها وملئت منه خوابيها روقه القائمون به وصفوا أوانيهم خارج بيت سقايتهم المذكورة فيشرب الناس منها ، وهذا في سائر أيام العام غير موسم الحج فإذا جاء الموسم أغلقوا باب بيتهم واختزنوا أوانيهم فيه لأجل كثرة الجهال والأعراب ولهم بخارج البيت مصاصات نحاس مركبة على أواني كبيرة فيشرب الناس منها حتى ينقضي الموسم، والله المستعان . " [٢]

أما بخصوص بئر زمزم وصفتها فإننا نجد المحجوب قد نقل لنا صورة واضحة للحجرة الموجود فيا البئر بقوله :" وأما حجرة زمزم فهي قديمة البناء عليها من عهد بني أمية وبني العباس ثم جددت مرارا

---

١ ـ نفسه، ص. ٢٤ .

٢ ـ نفسه، ص. ٢٤ و ٢٥ .

فشاهدناها مفروشة بالبلاط الجيد وبها حياض ملتصقة بجدراتها متنافرة يملؤها الناس ماء بقصد الوضوء منها ومجرى ماء الوضوء وغيره يخرج في قناة له تحت الأرض حتى يفضي إلى خارج المسجد، وباب هذه الحجرة شرقي المفتح وعليه مصراعان جيدان وبأعلى سطح هذه الحجرة بناء رفيع شبه سلّم ويسميه أهل مكة وأهل مصر الدّكّة وبه يؤذن المؤذنون لحضور الصلوات ويقيمون الصلاة ويسمعون، وهذا المبنا فيما ذكر ابن جبير أيضا قديم، وقد شاهدناه به أثر تسقيف جديد مرهون ." [1]

أما مقاييس البئر من ناحية الطول والعمق، فينقلها من مصدر الأزرقي بقوله :" والمبني من بئر زمزم طوله أربعون ذراعا وباقي قعرها جبل محفور عمقه تسعة وعشرون ذراعا."[2]

ويختتم أبو عبد الله المحجوب الحديث عن مكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها ووصف صورتها بكلامه عن أرض منى وأرض مزدلفة وأرض عرفات وهذه سماها بمعالم الحج .

فعن أرض منى يبدأ المؤلف بتحديد موقعها بأنه لا وجود لخلاف بين الأمة أن أول أرض جمرة العقبة، ثم يصفها بقوله :" وصفة جمرة العقبة الآن ومنذ أزمان أنها بناء كالبرج أو كصومعة صغيرة عريضة لكنها مُصمْتة لا جوف لها وقد بنيت على رأس شرق من حجر صلد ينحدر الناس منه إلى أرض منى ولانحداره يسمى عقبة وأضيفت إليه الجمرة الأولى العظمى . وصفة الجمرتين الباقيتين هكذا في البناء إلا

---

١ ـ نفسه، ص. ٢٥ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

أن جمرة العقبة أضخم بناء من الجمرتين الأخريين فيما شاهدناه وهو بناء ولا يزال يجدد كلما احتاج إلى تجديد لأن هذه البناءات المذكورة قد جعلت علامات على موضع رمي الحجاج للجمار ." [١]

كما وصف مسجد منى حسب مشاهدته له :" وقد خرب هذا المسجد فهو في هذه العصور ومنذ عصور جدار غير طويل وقد أحاط بكثير من أرض منى وفي أوسطه بناءان كصومعتين يقال إنهما جعلا علامة على موضع نزول الرسول صلى الله عليه وسلم ومصلاه بمنى وشاهدنا جداره المحيط به قد تهدم من جهات وخرب وليس له أبواب ولا إغلاق قبل خرابه وتهدمه ورأينا به من فضلات وحوش البر وفضلات وحوش بني آدم وجُهّالهم ما يحزن قلوب الموقنين ويملأها حسرة على ضياع معالم الدين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم." [٢]

وكعادته في ذكر المقاييس يعتمد على مصدر الأزرقي فيقول :" وقال الأزرقي طول أرض منى من جمرة العقبة إلى وادي مُحسر سبعة آلاف ذراع ومائة ذراع، وعرضها في حومة مسجدها ألف ذراع ." [٣]

وفيما يتعلق بأرض المزدلفة يتعجب المحجوب من عدم التطرق كل من الأزرقي والبكري إلى ذكر مقاييس الطول والعرض لهذه الأرض، فنجده يتكلم عن هذه المقاييس حسب مشاهدته فيقول :" والذي ظهر لنا أن مسافة طول أرض المزدلفة تقرب من ميلين وعرضها

---

١ ـ نفسه، ص. ٣١ .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه، ص. ٣٢ .

بين الجبال التي تحدها من جوفيها وجنوبها مائة ذراع ونحوها والله أعلم ." [1]

وبالنسبة لمسجد المزدلفة فقد نقل صورته كما يلي :" وهو في هذه العصور صغير الخطة شاهدناه وعليه باب مغلق المصاريع يصعد إليه بدرجات قليلة وهو في نشر من الأرض هنالك وجميع هذه المساجد بمنى والمزدلفة وعرفات غنما جعلوها علامة على نزول المصطفى صلى الله عليه وسلم بتلك البقاع في حجة الوداع ." [2]

أما أرض عرفات فيصفها بقوله :" هي أرض فسيحة الأرجاء قد أحاطت بها الجبال من جميع جهاتها وفي وسطها جبل متوسط بين الكبر والصغر ويتصل به جبلان صغيران، وبذيل هذه الجبال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وموقفه هنالك معلوم إلى هذا العهد وبه يقف أمراء الحجاج إلى الآن ." [3]

ويختتم المؤلف كلامه بذكر حدث وقع في أرض عرفات في عصره :" ومن عجائب صنع الله الجميل أن ظهرت بأرض عرفات في سني بضع وسبعين وثمانمائة من عصرنا هذا عين ماء عذب ثم جهرت وغزر ماؤها وبنيت عليها مصانع انتفع الحجاج بها وتواترت الأخبار بذلك في الآفاق، فسبحان ربنا عظيم السلطان الذي كل يوم هو في شأن ."[4]

١ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٢ ـ نفسه، نفس الصفحة .

٣ ـ نفسه، ص. ٣٤ .

٤ ـ نفسه، نفس الصفحة .

**خلاصة واستنتاج :**

بعد هذا العرض حول المخطوط وصاحبه والمعلومات الواردة فيه والصورة التي قدمها لمكة والأماكن المقدسة فيها تتضح لنا أهمية هذا المخطوط والمادة التاريخية الخامة المتوفرة فيه حول مكة المكرمة وبالتالي حول كل الأماكن المقدسة الموجودة بها ، ابتداء من الكعبة وانتهاء بالأراضي المحيطة بها والتي سماها صاحب المخطوط بمعالم الحج ويقصد كل من منى والمزدلفة وعرفات .

ويمكن إرجاع أهمية هذا المخطوط في نظرنا إلى العوامل التالية:

أولا ، وكما سبق الذكر، أهمية وتنوع المصادر التاريخية الأساسية والهامة التي اعتمد عليها المؤلف في تحصيل المعلومات وجمعها .

ثانيا ، اعتماده على المعاينة والمشاهدة الحية التي قام بها أثناء حجته في سنة ٨٦٠ هـ ، الشيء الذي مكنه من تمحيص المعلومات التي جمعها من المصادر وبالتالي تحري الدقة في حديثه عن مكة ووصفه للمرافق الدينية فيها .

هذا ما لاحظناه ووقفنا عليه في متن المخطوط . ففي كثير من المعلومات التي دونها أبو عبد الله محمد المحجوب نجده في البداية يقتبس من المصادر التي اعتمد عليها وفي آخر المطاف يعطي لنا الوصف والصورة حسب ما شاهده شخصيا ، كما أنه يصف كل المرافق الدينية ويعطي مقاييسها بدقة في كل مرحلة تاريخية يتحدث عنها ، وفي بعض الأحيان يعلق على النص الذي اقتبسه من المصدر ،

فإما يقوم بنفيه أو دحضه أو يقول إنه مبالغ فيه .

ويمكن أن نستأنس ببعض الأمثلة ونكتفي بها للاستدلال على هذه المسألة :

١ ـ عندما يتحدث ويصف معالم الكعبة كالحجر الأسود وبابها نجده يذكر ما قاله الأزرقي والبكري ثم يختتم كلامه بذكر أوصاف هذه المعالم كما شاهدها وعاينها بنفسه [١].

٢ ـ أثناء حديثه عن الركن اليماني يقول بأن كل من الأزرقي والبكري لم يذكرا مقاييس الطول والعرض لهذا الركن، وبالتالي يعطينا المحجوب مقاييس الركن معتمدا على مشاهدته [٢] .

٣ ـ كما نجده، عند حديثه عن حدود الحرم يستغرب من أرقام المقاييس التي ذكرها مصدر تقي الدين الفاسي حول طول المسافة الفاصلة بين مكة وميقات الحديبية، لأن هذه الأرقام تخالف ما أجمع عليه أئمة هذا الشأن [٣] .

ثالثا، والأهمية الأخرى للمخطوط تأتي من الطريقة التي اتبعها المؤلف لبناء المعلومات ودمجها في وحدة متكاملة ومتناسقة تسهل علينا وتوضح لنا كل المعلومات التي سجلها حول مكة والمرافق الدينية فيها .

وعلى سبيل المثال، عندما ينتهي المحجوب من الكلام ووصف الكعبة، ينتقل تدريجيا إلى الحديث عن معالمها الموجودة فيها

١ ـ نفسه، ص. ١٠ و ١٢ .

٢ ـ نفسه، ص. ١٥ .

٣ ـ نفسه، ص. ٣٣ .

كالحجر الأسود وباب الكعبة وحجر الكعبة وركنها اليماني .

وبعد ذلك ينتقل في الحديث عن المعالم القريبة من الكعبة كمقام إبراهيم . ثم نجده يخصص الحديث عن المسجد الحرام، ليختم هذا الوصف بالكلام عن معالم الحج .

ورغم هذه الوحدة المتناسقة يمكن أن نسجل أن صاحب المخطوط لم يحترمها بصفة كاملة أثناء حديثه في البداية عن مكة ، فقد توقف عن هذا الحديث في الصفحات الأولى للمخطوط ليستأنفه في صفحات متأخرة كما ذكر ذلك بقوله : " وبعد الفراغ من ذكر الكعبة المعظمة ومسجدها الحرام المرفع وصفة ذلك وما احتوى عليه المسجد بداية ونهاية ، فلنرجع إلى صفة مكة كلها بواديها وجبالها المحيطة بها والقريبة منها " [١] .

رابعا ، يمكن لنا القول إن كل الأماكن المقدسة الموجودة في مكة حظيت بتسجيل المعلومات ووصفها بكل دقة وبالأخص من ناحية البناء والمقاييس، غير أن الكعبة حصلت على النصيب الأوفر في الكلام عنها ووصفها ، وكان طبيعيا أن تحظى بهذا النصيب نظرا للمكانة الدينية التي تحتلها في قلوب المسلمين .

وأختتم هذا التعليق بالتأكيد على أن هذا المخطوط لا يخلو من فوائد ويبقى مصدرا تاريخيا حول مكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها بصفة خاصة ، وحول الحرمين الشريفين بصفة عامة .

---

١ ـ نفسه ، ص. ٢٧ .

## IV . نص المخطوط : ( الجزء الأول الخاص بمكة المكرمة والأماكن المقدسة فيها ):

بسم الله الرحمان الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

هذا ما ألف الشيخ الفقيه العالم المتفنى

أبو عبد الله محمد المحجوب وفقه الله

الحمد لله الذي هدى العقول بقدرته، وأحكم تدبير الخليقة بتصاريف حكمته، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد أشرف خليقته، وسيد ولد آدم، وصفي الله وخليقته، وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه وعشيرته، ما سجع حمام بدوحته، وهمع غمام في غدوته وروحته، أما بعد : فإن بعض المجالس المعظمة قد جرى فيها ذكر مكة المشرفة المكرمة، ووقع الخلاف في وصفها وقيس مساحتها وصفة المسجد الحرام الذي بساحتها، وغير ذلك من أخبارها. فبلغني ذلك بواسطة بعض العدول والمدرسين للأعلام، ممن بيني وبينه ءاكد مودة وذمام، ورغب مني أن أبحث عن أوصاف هذا البلد الحرام. ولما كنت جهينة هذه الأخبار، شديد العناية بهذه الآثار، لأجل تعلقها بحرمة مولانا الخدوم الأعظم نبينا محمد المصطفى المعظم، صلى الله عليه وسلم . لأن مكة شرفها الله دار ميلاده وموضع نشأته وبعثته، والمدينة المنورة دار هجرته ومحل استحكام أمره وعلو كلمته، وموضع قبره المقدس وتربته . فعزمت أن أجمع من أخبار

هذين الحرمين الشريفين ما يحسن ذكره ويعظم إن شاء الله أجره ومن الله أستمد المعونة والتوفيق، إلى سبيل الحق والتحقيق، وأن يجعل القصد به وجهه الكريم، وخدمة جناب نبيه المصطفى العظيم، وأن يتقبله بفضله الجميل، ويتجاوز عن كل ما تخلله من تصنع وخطأ دقيق أو جليل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصل في ذكر الكتب التي جمعت منها هذا المجموع المبارك بحول الله وقوته :

أولها كتاب تاريخ مكة وأخبارها للشيخ الإمام الثبت الراوية أبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي وهو مكي المولد والمنشأ والوفاة. عاصر الإمام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم رحم الله جميعهم . ومنها كتاب الحافظ أبي عبد الله الفاكهي ) الجامع لأخبار الحرمين الشريفين، ومنها كتاب شرح السيرة النبوية الكريمة للحافظ أبي القاسم السهيلي، ومنها كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري ومنها كتاب رحلة الفقيه الأديب أبي الحسين بن جبير الأندلسي، ومنها كتاب المناسك للفقيه الأفضل السعيد بجوار قبر المصطفى أبو عبد الله محمد بن فرحون، ومنها كتاب تهييج الغرام إلى البيت الحرام للفقيه الحافظ تقي الدين الفاسي نزيل الحرم المكي الشريف وقاضي المالكية به في أواخر المائة الثامنة وأوائل هذه المائة التاسعة ؛ سوى ما أنقله عن غير هؤلاء من أكابر العلماء وأفاضل المحدثين والمصنفين في أخبار المدينة الشريفة خاصة، ثم أذيل ما شاهدته من أوصاف الحرمين في عام حجتي عام ستين وثمانمائة وقد سميت هذا المجموع المبارك بكتاب : " قرّة العين في أوصاف الحرمين "

## < ذكر مكة زادها الله تشريفا >

هذا الإسم سماها الله به من عهد إسماعيل عليه السلام، وتناسلت ذريته العرب الإسماعيلية وهي تسميها بذلك حتى بعث منهم سيد العالمين محمد ﷺ فأثبت هذه التسمية على هذا البلد المبارك وأنزل الله عليه قوله الصادق :﴿ *إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا* .﴾ وقوله تعالى : ﴿ *وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة* ﴾ . ولا خلاف بين أهل الكتابين التوراة والإنجيل في أن إسم مكة في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء فَارانْ : بفاء وراء مهملة بعدهما ألف ونون، وقال بعض من أسلم من علمائهم أن *فاران* ليس باسم عبراني عجمي ولكنه إسم أول من أعمر أرض مكة من العرب العمالقة والله أعلم .

فأما أول وجود مكة، فالحاصل من الآثار التي أوردها أبو الوليد الأزرقي بأسانيده عن جلة من الصحابة، منهم عبد الله بن عمر وابن العاصي والتابعين كعامر الشعبي والحسن البصري ووهب بن منبه وكعب الأحبار رضي الله عنهم أجمعين، أن الله سبحانه اختار موضع الكعبة في أزله، ثم خلقه قبل خلق جميع الأرض، ثم دحا بلد مكة من تحت الكعبة ودحا الأرض من تحت مكة، وهذا عند جمهور المفسرين معنى تسمية مكة في القرآن بأم القرى . وروى الأزرقي أن الله تعالى أمر الملائكة أن يهبطوا من الجنة بقبة من ياقوت فيضعوها في موضع الكعبة وأن يطوفوا بها ويعظموها كما يفعلون بالبيت المعمور . وروى الأزرقي عن مولانا علي كرم الله وجهه أن الكعبة في الأرض موازية للبيت المعمور في السماء، بحيث لو نزل من

السماء نزل عليها، فلم تزل الملائكة تطوف بقبة الياقوت التي كانت بموضع الكعبة حتى خلق الله آدم نبيه وصفيّه عليه السلام وأهبطه إلى الأرض وجعله فيها خليفة . ولا خلاف في أن هبوطه كان بأرض الهند، فأمره الله أن يقصد بلد مكة ويطوف بقبة الياقوت التي بها ويعظمها، ففعل ذلك وقيل إنه كان يتكرر من أرض الهند إلى الحج بمكة وفي حرمها اجتمع بزوجه حواء وقيل خارج الحرم . ورُوي أن نوحا عليه السلام حمل جسد آدم عليه السلام في سفينته، سكن بمكة حتى مات بها ودفن في مسجد الخيف من أرض منى، أو بجعل أبي قُبيس في غار هنالك معه فيه حواء زوجه وابنهما شُميت عليهم السلام . ورُوي أن نوحا عليه السلام حمل جيد آدم عليه السلام في سفينته من هنالك ودفنه بأرض الشام . ولما تعلق علم الله القديم أن قبة ياقوت الجنة لا يدوم بقاؤها في الأرض أمر الملائكة فرفعوها وردوها إلى الجنة وذلك قبل موت آدم عليه السلام، ثم أمر الله آدم أن يبني أساس الكعبة على مقدار أثر قبة الياقوت وفي موضعها سواء، ففعل ذلك وأعانته الملائكة بالوحي إليهم في ذلك ووضعوا له في الأساس حجارة عظيمة جدا لا يطيق ثلاثون رجلا من بني آدم أن يحركوا حجرا واحدا منها ثم رفع آدم البناء فوق ذلك الأساس بمقدار ذراعين أو ثلاثة لكيلا يطمس الأساس . ورُوي أن الله تعالى ردّ لآدم قبّة الياقوت فوق بنائه المذكور فلم تزل كذلك حتى مات آدم عليه السلام فرفعت قبة الياقوت . وروى الأزرقي أن شيت ابن آدم وإخوته بنوا جُدرات الكعبة بعد رفع القبة فهم أول من بناها في الدنيا وعظّموا ما عظّم الله من حرمتها على لسان أبيهم آدم عليه السلام . فقد روى الأزرقي في تعظيم الكعبة أن آدم عندما علّمه جبريل مناسك الحج

وحج لقيته جماعة من الملائكة فقالوا له برّ حجك يا آدم لقد حججنا إلى هذا البيت قبلك بألفي عام . وروى الأزرقي أن الأنبياء الذين كانوا بين آدم وإبراهيم كلهم حجوا إلى الكعبة وعظموها بوحي الله إليهم .

( صفة الكعبة قبل الطوفان وبعده ) فأما قبل الطوفان فكانت بيتا مبنيا ببناء أولاد صلب آدم كما مضى ذكره يُطاف بها وتُميّز ذاتها ، وأما بعد الطوفان فإن جدراتها تهدمت بمائة وصار موضعها رُبوة حمراء عطرة معلومة معظمة عند فضلاء الأمم المؤمنة التي كانت بين آدم وإبراهيم عليهما السلام . وذكر ابن هشام في كتابه التيجان أن هودا عليه السلام حج إليها وهي كذلك ومعه يعرب بن قحطان، فقال يعرب لهود ألا تبني هذا البيت يا نبي الله، فقال هود لا ولكن يبنيه نبي يأتي من بعدي اسمه إبراهيم . وروى الأزرقي أن بناء الكعبة من شرقها دفن به سبعون نبيا وفيل سبعمائة منهم نوح وهود ولوط وصالح وشعيب عليهم السلام لأن هؤلاء الرسل الذين أهلك الله أممهم بعاجل النقمة في الدنيا، عندما هلكت أممهم قصدوا مكة فسكنوها حتى ماتوا بها ، والأنبياء لا يفعلون مثل هذا إلا بوحي من الله عز وجل إليهم، ثم دفن هنالك عدد كثير من الأنبياء كما تقدم . وروى الأزرقي أن الملائكة عليهم السلام لا يزالون يستأذنون ربهم تبارك وتعالى في زيارة الكعبة فيؤذن لهم فينزل أحدهم من السماء وهو مهلل بالتلبية والتكبير حتى يطوف بها وهذا رفعه الأزرقي بالإسناد إلى النبي ﷺ . وروى رحمه الله أن السبعين ألف ملك الذين يدخلون كل يوم البيت المعمور إذا انصرفوا عنه نزلوا إلى الكعبة وطافوا بها ثم يتوجهون إلى قبر النبي ﷺ فيسلمون عليه ويصلون في مسجده ثم يصعدون، وذلك كل يوم على الدوام .

فهذا خلاصة خبر مكة والكعبة قبل إبراهيم عليه السلام وحصل من ذلك أنها أعمرها الأنبياء والرسل قبل الطوفان وبعده وأول من أسس الكعبة صفي الله آدم عليه السلام وأعانته الملائكة الكرام ثم عظموها ونزلوا من السماء وللطواف بها وكل هذه الآثار التي رواها الأزرقي عن النبي ﷺ وعن صالح السلف من الصحابة والتابعين وعلماء المفسرين الأولين لأولى بالقبول والصحة مما أشار إليه القاضي أبو بكر بن عطية في كتاب تفسيره للقرآن حيث قال إن مكة والكعبة لا تعرف أولية قبل إبراهيم ولا يعول على ما روي في ذلك : انتهى كلام ابن عطية . ومن علِم جلالة قدر الأزرقي وثقته وحفظه ودينه علِم أن الذي رواه وأثبته أولى بالقبول والصحة من الذي ضعفه ابن عطية ونفاه لأن القاعدة عند علماء الأمة أن من حفظ حجة مُقَدّمٌ على من لم يحفظ، ومن أثبت مُقَدّمٌ على من نفي مع أن مرويات الأزرقي في ذلك قد رواها الثقاة غيره مثل أبي إسحاق وابن هشام وموسى بن عقبة والواقدي وأبي عبيد البكري وبالله التوفيق .

**ذكر أخبار مكة والكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام:**

لا خلاف بين جميع الأمم من العرب والعجم وأهل الكتاب أن خليل الله إبراهيم على سيدنا محمد وعليه السلام هو الذي بنا بيت الكعبة بمكة وانه بوحي الله إليه في ذلك، وقد صرح بذلك كتاب الله العزيز المنزل على محمد سيد العالمين، وأخبر أنه هو وولده إسماعيل رفعا القواعد من البيت وهو بيت الكعبة بالإجماع وثبت ذلك في الحديث الصحيح وعند أصحاب السير وصحيح الخبر أن إبراهيم عليه السلام حمل هاجر أم ولده إسماعيل من الشام وأنزلهما بوادي

مكة وليس به يومئذ أنيس وكان ولدها إسماعيل عليه السلام رضيعا وقصتها في ذلك مشهورة وفي الصحيح مذكورة حيث أنس الله وحشتهما بذلك الوادي المبارك ورحم غربتها وفاقتها بالروح الأمين جبريل عليه السلام فضرب الأرض بعقبه فنبع ماء بل منها ماء زمزم فاكتفت به هاجر غذاء وشرابا بعد أن بشرها جبريل عن رب العالمين بأن الله لا يضيعها وأن له تعالى بولدها عناية عظيمة وأنه يبني هناك بيت الله مع أبيه إبراهيم ثم تمت النعمة وكملت الرحمة على هاجر بورود العرب العاربة على هاجر وهم جُرهم والعمالقة حيث نزلوا معها بذلك الوادي المبارك واتخذوه وطنا ومسكنا فنشأ ولدها إسماعيل معهم وتكلم بلسانهم وتخلق بأخلاقهم حتى صار عربيا فاضلا زكيا ليجعله الله أبا لجميع أمة العرب الإسماعيلية ويصطفي منها حبيبه المختار محمد أشرف البرية ﷺ حسبما سبق بذلك علمه المحيط وإرادته النافذة لا إله إلا هو ولا خلاف أن قبائل جُرهم ومن كان معهم من أحلافهم العمالقة أول من اعتمر وادي مكة مع إسماعيل وأمه هاجر . ولما شبّ إسماعيل عليه السلام تزوج امرأة من العمالقة فلم يقدر بينهما ولد حتى أمره أبوه إبراهيم بفراقها في قوله :"غيّر عتبة بيتك " كما جاء في الصحيح . ثم تزوج امرأة من جُرهم وهي ابنة ملكهم وأمره أبوه إبراهيم بإقرارها فكانت منها ذريته المباركة . تنبيه عظيم الفائدة : اعلم أن تكرار زيارة إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل بمكة لاختبار حال زوجته لم يكن سُدا ولا عن أمر غير مقصود بل السر العزيز فيه والمقصود منه أن يتخير للنطفة الشريفة المحمدية من الأرحام الكريمة الطاهرة ما يليق بها ، فإن نور ذات نبينا ومولانا محمد ﷺ كان ينتقل من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة بالعهد والميثاق

من أنبياء كل عصر، فما انتقل نوره المقدس من غرة رجل شريف كريم من رجال عمود نسبه الكريم إلى رحم طاهرة من امرأة شريفة طاهرة لم يلمع النور في عزتها حتى تضع حملها فلذلك تفقد خليل الله حال زوجتي إسماعيل . فالأولى التي لم يرضها الله للذرية المباركة عقر رحمها عن الولادة حتى تيسر طلاقها بأمر الخليل ولا يخل أن يكون ذلك بوحي الرب الجليل . والمرأة الثانية المرتضاة للنسل المبارك أقرها الله في عصمة إسماعيل وولدت له اثنا عشر ولدا ذكرا، منهم نشر الله ذريته، قالوا وكان اسم هذه المرأة السيدة بنت مضاض ملك جُرهم فوافقت حتى في اسمها وهي السيدة التي صلحت لولادة نور سيد العالمين محمد ﷺ، انتهى التنبيه .

وقد كان إسماعيل عليه السلام وأولاده وأصهاره من جُرهم والعمالقة أول من اعتمر وادي مكة وبنوا به المنازل والدور والأعرشة للظلال . وروى الأزرقي أن إسماعيل عليه السلام تشكى إلى ربه تعالى حرّ مكة فأوحى الله إليه أني سأبعث لك ريحا من الجنة يجري عليك روحها إلى يوم القيامة، فكان يجلس بحجر الكعبة من جوفيها ويتنسم على ذلك الروح حتى توفاه الله .

**أول بناء إبراهيم الكعبة :**

قال أئمة هذا الشأن لما أمر الله خليله إبراهيم بناء الكعبة وأن يعينه ولده إسماعيل في ذلك شرعا فيه وهو معنى قوله تعالى : ﴿ *وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل* ﴾ . ورُوي أن جبريل عليه السلام دلهما على أساس آدم فكشفا عنه ورفعا القواعد عليه، والقواعد هنا واحدتها قاعدة وهي الحجارة التي وضعها إبراهيم فوق

أساس آدم عليهما السلام . وفي كتاب التيجان لابن هشام أن إبراهيم وإسماعيل بنياه بالحجارة والطين كسائر البناءات وأن هاجر أم إسماعيل كانت تناولهما الطين بعد أن تعجنه، والصحيح في هذا ما رواه الأزرقي عن الحبر ابن عباس أنهما بنياه حجارة بعضها فوق بعض ليس فيها طين ولا جيار . وروى الأزرقي أن ابن عباس حلف بالله تعالى أن إبراهيم لم يجعل في بناء الكعبة ترابا ولا قصة يعني الجيّار أو الجص، انتهى كلام الأزرقي . وهذا الذي نقل عن ابن عباس أقرب له مزاجة خلة إبراهيم وأظهر لمعجزته حيث أبقى الله بناء الكعبة بعده أحقابا طويلة وهي حجارة غير مطينة ثم لم تزعزعها الأرياح والأمطار . وقال إثبات علماء هذا الشأن أن هاجر أم إسماعيل لم تدرك بنياه إبراهيم للكعبة لأنها ماتت قبل ذلك ودفنها ولدها إسماعيل في موضع الكعبة ثم بنيت الكعبة على قبرها، فلما مات إسماعيل دفن إلى قبر أمه في جوف الكعبة وهذا لا خلاف فيه عند علماء هذا الشأن .

ذَرع الكعبة ببناء إبراهيم :

قالوا ولما بنا إبراهيم عليه السلام الكعبة جعل طولها في الهوى تسعة أذرع وهذا أيضا لا خلاف فيه وجعل طولها من الشمال إلى الجنوب ثلاثين ذراعا وعرضها من الشرق إلى الغرب اثنين وعشرين ذراعا، هكذا ذكر الأزرقي وغيره . ولا خلاف أن إبراهيم عليه السلام لم يجعل للكعبة بابا ولا سقفا ولا ميزابا وهو الذي وضع الحجر الأسود بموضعه منها حيث جاءه به جبريل وناداه إليه جبل أبو قبيس، وقد كان الحجر الأسود في زمن الطوفان استودعه جبريل بجبل أبي قبيس، فلما بنى إبراهيم الكعبة جاءه جبريل بالحجر وفيل

ناداه أبو قبيس يا خليل الله إن لك عندي وديعة فخذها، فأخذه ووضعه بركنها الشرقي الجنوبي منها . ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء الكعبة جاءهما جبريل فأمرهما بالإحرام للحج فأحرما وعلمهما مناسك الحج في معالمه كلها وقيل إن إبراهيم عليه السلام لم يزل يتكرر من الشام إلى الحج بمكة حتى توفاه الله، ثم كان ولده إسماعيل عليه السلام رسولا من الله إلى أهل تهامة والحجاز من العرب العاربة يومئذ، فآمنوا به وصدقوه واتبعوا دين الحنيفية دين إبراهيم الخليل عليه السلام، ولم يزالوا على ذلك حتى توفى الله إسماعيل عليه السلام وعمره مائة وثلاثون عاما، فقام بسدانة الكعبة بعده أولاده ثم مات أكابرهم فتولى سدانتها أخوالهم من جُرهم لأنهم كانوا ولاة أمر مكة وجباية خراج أسواقها، فغلبوا صغار بني إسماعيل على سدانة الكعبة والقيام بأمورها وتعاقبوا عليها أحقابا طويلة حتى بدلوا وغيروا وكثر عدوانهم فسلط الله عليهم بطون خزاعة فأخرجوهم من مكة والحجاز بل وجميع أرض الحجاز كما هو معلوم عند أهل الخبر، ثم لم يزل أمر مكة والكعبة بأيدي خزاعة حتى انتزعها منهم قُصي بن كلاب سيد قريش في عصره . وقيل أن أول من بدّل دين الحنفية خزاعة وهم أول من عبد تماثيل الأصنام بمكة والحجاز وعنهم أخذ ذلك بطون العرب في الجاهلية . وأول من أحدث ذلك من خزاعة عمرو بن قُحَيْ الذي ثبت ذكره في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه رآه في المنام يجر قُصبُه في النار وقال لأنه أول من سيّب السوائب وبدّل الحنيفية، وقُصبُه معناه حشوة بطنه ومعاءه .

وأما قصة قُصي بن كلاب القريشي في انتزاع أمر مكة من أيدي خزاعة وجميع حلفائهم فقصة عظيمة مشهورة وفيها عبرة لأولي

الأبصار، وإنما كانت بركات نبينا ومولانا الحبيب المصطفى هي التي ظهرت على جده قصي عند اقتراب وجوده وظهور نوره ﷺ، فأعزّ الله أمر قصي وأمده بتأييده حتى تم له ذلك الفتح العظيم والنصر العزيز وتمكّن من أمر مكة وجمع قومه من بطون قريش فأنزلهم بها بعد أن كانوا مفترقين بنواحي تهامة متقلبين فيها بسكنى الخيام واكتساب الخيل والإبل كسائر قبائل العرب، إلا أن قريشا كانت شهيرة الذكر رفيعة المنصب بكونها صريح ولد إسماعيل من نسل لؤي بن غالب بن فهر، فكانت جميع العرب تعظمها وتعرف لها حقها حتى جمعها قصي بن كلاب بمكة فحازوها وتناسلوا بها على حال تعظيم كافة العرب لهم فكانوا يسمونهم آل الله وجيران الله حتى انتخب الله منهم صفوته من خلقه سيدنا ومولانا ونبينا محمد ﷺ وظهر لذوي البصائر النيرة أنه هو المقصود الأعظم من تلك الوسائل كلها صلوات الله وسلامه عليه .

ولما جمع قصي قومه من قريش بمكة قسمها عليهم منازل، فنزلت بطونهم بها وكانوا اثنتي عشرة بطنا وهم قريش البطاح فابتنوا الدور والأعرشة سوى ما كان بها من بناءات خزاعة وعمروها أتم عمارة حتى جاء الله بالإسلام .

**ذكر تجديد قصي لبناء الكعبة ومن بعده :**

قال أئمة هذا الشأن لما تمهد أمر قصي بمكة جدد الكعبة لأنها تهدمت في مدته، قال البكري وقيل إنها لم تتهدم ولكنه نقضها ليُتقن بناءها ثم سقّفها . وقد ذكر البكري أن الكعبة تهدمت بعد إبراهيم فبنتها العمالقة ثم تهدمت فبنتها جُرهم ثم بناها

قصي ثم تهدمت فبنتها قريش والنبي ﷺ بين أظهرهم قبل أن يوحى إليه . ولما عزموا على تجديد بنائها جمعوا مال النفقة لذلك من عندهم وأخرجت كل بطن منهم مالا معينا وأوصاهم أكابرهم أن لا يجعلوا في المال الذي عينوه لذلك ربا ولا غصبا ولا شيئا مما يخالف شريعة إبراهيم عليه السلام وهذا بإلهام الله تعالى لهم على حالة شركهم وجاهليتهم، ثم نقضوا بيت الكعبة حتى كشفوا عن قواعد إبراهيم وأساس آدم ورفعوا بناءهم عليه ثم قصرت نفقتهم بفراغ المال الذي أعدوه للبناء فتركوا من جوفي الكعبة ستة أذرع وشبرا وأقاموا جدار الكعبة من هنالك ناقصا عن أساس إبراهيم فصار طول الكعبة من الجوفي إلى الجنوبي ثلاثة وعشرين ذراعا كما تقدم . فنقصت قريش منها ستة أذرع بل ونصف ذراع لأن إبراهيم عليه السلام كان جعل طولها على قدر أساس آدم ثلاثين ذراعا كما تقدم فنقصت قريش منها ستة أذرع وشبرا ، كذا حققها الأزرقي ثم بنت قريش حوطة على ما نقصت من جوفيها هنالك وسموا تلك الحوطة بجدارها القصير حجرا لاتصالها بحجر إسماعيل وهو مجلسه الذي كان يجلس به ويتنسم روح الجنة كما تقدم ذكره، وقد كان ذلك المجلس زربا لغنم هاجر أم إسماعيل تبيت به غنمها وغنم ولدها إسماعيل لأنها عندما جاوزتها العرب العاربة بمكة تخلقت بأخلاقهم في معاشهم من اكتساب الماسية السائبة رحمة الله عليها . ولا خلاف أن قريشا زادوا في ارتفاع الكعبة في الهوى تسعة أذرع فصار طولها ثمانية عشر ذراعا لأن إبراهيم عليه السلام كان جعل طولها تسعة أذرع كما تقدم، نقل الإجماع على ذلك، ثم سقفت قريش الكعبة من غير خلاف في ذلك إما جددوه على قول البكري وإما أحدثوه على قول غيره وجعلوا

لسقفها ميزابا يصوب إلى حجر إسماعيل وجعلوا لها بابا شرقيا عليه دفة واحدة وجعلوا بابها مرتفعا عن الأرض يصعد إليه بدرجات من خشب شبه المنبر . فلم تزل الكعبة على هذه الصفة حتى جاء الله بالإسلام وصارت مكة بفتح الله ونصره لإيالة الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، فلم يحدث في الكعبة شيئا لأجل ائتلاف لقلوب قريش حسبما ثبت في الصحيح أنه قال لعائشة :" لولا أن قريشا حديث عهدهم بجاهلية فأخاف أن تنكر في ذلك قلوبهم لنقضت الكعبة حتى أردها على قواعد إبراهيم ." وهذا الحديث الكريم هو الذي عوّل عليه عبد الله بن الزبير حين ردّ الكعبة على قواعد إبراهيم كما يأتي ذكره قريبا .

وأما الخلفاء الراشدون فاقتدوا بنبيهم ﷺ ولم يحدثوا في الكعبة شيئا ، وتبعهم على ذلك معاوية . فلما مات معاوية وبويع بعده لابنه يزيد لأن عبد الله بن الزبير أحد الأعلام الذين امتنعوا من بيعته ولاذ بمكة وحرم الكعبة ظنا منه أن بني أمية يحترمونها ولا يقاتلونه فيها ، فبعث إليه يزيد بجيش كثيف فحاصره بمكة ورموه بحجارة النفط والمنجنيق وهم أبعدهم الله أول من استحل حرمة ذلك الحرم الشريف وبيته العتيق . وروى أبو الوليد الأزرقي أن أول حجر أصاب الكعبة من حجارة المنجنيق سمع لها تأوّه كتأوه المصاب المحزون : ءاهْ ءاهْ، ثم أصاب أستارها حريق فاحترقت جدراتها باحتراق خشب كانت قريش دعمت به البناء وكل ذلك في حصار جيوش يزيد لابن الزبير ثم أهلك الله يزيد وقصه باحتراق الكعبة . ولما علمت جيوشه بموته انصرفوا إلى الشام بخيبة آمالهم واحتقاب أوزار قبيح أعمالهم، فجمع ابن الزبير الناس على بيعته وبايعوه بالخلافة واجتمعت أهل أمصار

الإسلام على بيعته إلا بعض أهل الشام . فلم يبدأ بشيء قبل بناء الكعبة فأعد لها الآلات الجيدة المتقنة وقطع الحجارة لها من جبال قريبة من مكة ثم أمر بنقضها فنقضت كلها حتى كشف عن أساس آدم وإبراهيم عليهما السلام . قال الأزرقي وترك الأساس مكشوفا ثلاثة أيام ليراه الناس من أهل مكة والواردين عليها ويشهدوا بذلك ثم أقام البناء على جميع الأساس من جميع جهاته ووضع الحجر الأسود بموضعه ثم جعل للكعبة بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وجعلهما ملتصقين بالأرض على صفة ما حدثته عائشة خالته أن رسول الله ﷺ أراد أن يفعل لولا مراعاته لقريش مع قرب عهدها بالجاهلية . قال الأزرقي وأبو عبيد الله البكري ولما تمّ ابن الزبير البناء من الكعبة على قواعد إبراهيم بلغت في الطول من الشمال إلى الجنوب ثلاثين ذراعا كما كانت في عهد إبراهيم عليه السلام وشاهدها ابن الزبير كذلك فاستقصر طول جدارها في الهواء فزادت فيه تسعة أذرع فصار طول الكعبة في الهواء سبعة وعشرين ذراعا لأن إبراهيم عليه السلام بناه تسعة أذرع وزادت فيه قريش تسعة أذرع ثم زاد فيه ابن الزبير تسعة أذرع . وقالوا إن ابن الزبير عندما أكمل بناء الكعبة كساها كسوة قباطي وهي ثياب بيض كانت تعمل ببلاد مصر وهي بلاد الأقباط وقيل بل كساها ابن الزبير الحرير والديباج كما يأتي تحريره عند ذكر كسوتها إن شاء الله . ولما قتل ابن الزبير وتولى أمر مكة قاتله الحجاج بن يوسف عاملا فيها لسلطانه عبد الملك بن مروان بعث إليه يقول إن ابن الزبير أفسد قبلة المسلمين والله يعلم ويشهد أن الحَجّاج في هذا أفجر الكاذبين قالوا فأجابه عبد الملك : ردها على ما كانت عليه في زمن قريش وصدر الإسلام . فنقضها الحجاج من جوفيها

وأخرج منها ستة أذرع ونحوها فجعلها حجرا للكعبة ثم أقام بناء جدار الكعبة من هنالك حتى أوصله بسقفها ورفع بابها الشرقي عن الأرض كما كان في زمن قريش وسد الباب الغربي الذي أحدثه ابن الزبير وقد كان ابن الزبير جعل البابين ملتصقين بالأرض فنقضها الحجاج وبنا بابين مرتفعين عن الأرض ثم سد الغربي منها وأبقى الشرقي، كذا ذكر الأزرقي وحقق الوصف رحمه الله . فالكعبة على هذه الصفة إلى الآن وبناء جميعها من عمل ابن الزبير إلا الجدار الجوفي منها وحوطة الحجر التي من ورائه والبابين اللذين بدل الحجاج للكعبة من شرقيها وغربيها وقد نقل ابن فرحون الإجماع على هذا وقال بعض جلة العلماء إن الحجاج نقض جميع الكعبة لأن حجارة المنجنيق التي رمى بها الحجاج في حصاره أوهنتها . وقال الأزرقي والبكري : ولما نقض الحجاج جوفي الكعبة أخذ ما فضل عن بنائه من حجارة نقوضها فكبسها بها يعني جعل لها مكمدة محبطة بأسفل جدارها من جهاتها كلها إلا جوفيها، وهذه المكمدة لم تزل باقية تجدد على مر الأزمان وقد سميت بعد صدر الإسلام شَذِروانا، وقد غلط فيها جماعة من الفقهاء المتأخرين حسبما نبينه إن شاء الله .

**بيان مسألة الشَّذِروان:**

اعلم أن هذه المكمدة التي دعّم بها الحجاج بيت الكعبة لم يقصد بها إتمام نقض فيها وإنما قصد تدعيم جدراتها ودفع نداوة مياه الأمطار عنها فغلط في ذلك جماعة كبيرة من فقهاء المالكيين وغيرهم حيث توهموا أن هذه المكمدة التي سميت شَذِروانا هي من عرض جدار الكعبة وأن قريشا حين بنوها لم يبنوا عرض أساس

الكعبة على قدر عرض أساس إبراهيم بل جعلوا المكمدة إتماما لما نقصوا من عرضها ، فأكد هؤلاء الفقهاء في التحفظ من المشي على الشّذروان في حالة الطواف بالكعبة لن الماشي عليه ماش على جزء من الكعبة غير طائف به والطواف بجميع أجزاء الكعبة فرض واجب، فالماشي على الشذروان طوافه عندهم باطل . هذا خلاصة ما قالوه وهم إن شاء اللّه مثابون في اجتهادهم مأجورون أجرا واحدا لخطئهم في أصل مشروعية المسألة ، وقد أكد محيي الدين النووي في التحفظ من الشذروان عندما يستلم الطائف الحجر الأسود ، وتبعه عليه ابن المعلى في مناسكه وبالغ في وصف التحفظ ومن قبله ذكرها أبو عمرو بن الحاجب في كتابه وشراحه كلهم وجميع ذلك كلام فارغ لا أصل له في الشريعة ولا في مذهب مالك حسبما نحرره الآن، وقد نبه على هذه المسألة ابن رشد وابن فرحون في مناسكه وتقي الدين الفاسي في كتابه وصرحوا بأنها مسألة لا أصل لها في مذهب مالك وأن أول من ذكرها من المالكيين ابن شاس ثم بينوا وجه الغلط بما هو أجلى من الشمس، فأول ذلك بطلان قول الذي قال إن الكعبة الآن على بناء قريش وأنهم نقضوا من عرض أساسها حين قصرت بهم النفقة وهذا لم يقله أحد من أهل العلم البتة وإنما نقضت قريش من طولها فتركوا من جوفيها ستة أذرع وزيادة كما تقرر نقله وسموه حِجرا ، وقد ثبت هذا في الصحيح عن الصادق والمصدوق ﷺ . وأما بناء قريش الكعبة فلا خلاف بين الأمة أن ابن الزبير نقضه كله حتى كشف عن الأساس القديم وبنا على قدر عرضه ولم ينقض الحجاج من فعل ابن الزبير إلا ما تقدم ذكره من جوفي الكعبة وإخراج الحجر منه فقط . وحكى عياض وغيره الإجماع على هذا ، والحجاج لم يقصد ببناء

مكمدة الشذروان إلا دعامة جدرات الكعبة كما صرح به الأزرقي والفاكهي والبكري وغيرهم أن هارون الرشيد العباسي أراد أن ينقض الكعبة ويردها على صفة بناء ابن الزبير ويدخل الحِجر فيها، ثم تشاور في ذلك أهل العلم والدين منهم مالك بن أنس فقال له مالك أنشدك الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت لعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن ينقضه إلا نقضه، فقبل الرشيد كلام مالك مع موافقة علماء عصره على صوابه رحم الله جميعهم .

**ذكر معالم الكعبة والبداية بالحجر الأسود:**

روى الأزرقي وابن إسحاق وغيرهما أن أصله من يواقيت الجنة، وفي الصحيح أنه عندما نزل إلى الأرض كان شديد البياض وإنما سودته خطايا أهل الجاهلية، وفي رواية سودته خطايا بني آدم . والمراد ببني آدم خصوصا أهل الجاهلية فيضم مطلق الحديث الكريم إلى مقيده، وتتفق معاني رواياته . ورُوي أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض يبايع به عباده، فاستلامه بالأيدي مبايعة لله تعالى . ورُوي أنه يجيء يوم القيامة وله عينان ولسان يشهد لمن استلمه بحق . وروى الأزرقي أنه سيرفع في آخر الزمان ويرده جبريل عليه السلام إلى الجنة وذلك من أعظم أشراط الساعة، وقال الأزرقي طول الحجر الأسود في جدار الكعبة ذراع وأربعة أصابع، وقال أبو عبيد البكري طوله ذراع وشبر وعرضه ثمانية وعشرون أصبعا . فالأزرقي على إمامته في هذا الشأن لم يذكر عرضه بل قال عن طوله ذراع وأربعة أصابع وهو أثبت في هذا لأنه يخبر عن معاينة ومباشرة بنفسه، فنقله مقدم على فعل البكري وانفراد البكري بذكر عرضه فيه فائدة عظيمة رحمهما

اللّه جميعا . وقال الأزرقي أول من شعف الحجر الأسود يعني جمعه بعد كسره عبد اللّه بن الزبير وذلك عندما انصدع بحريق النار وبحجارة المنجنيق التي أصابت الكعبة في حصار جيوش أهل الشام لابن الزبير بمكة . وقد جمع ابن الزبير بين أفلاقه بفضة جيدة كما قال الأزرقي وقال إن هارون الرشيد جدّد فضته وإلصاقه في عام تسعة وثمانين ومائة من الهجرة بعد أن أحضر له أهل البراعة في تلك الصناعة فثقبوه بحجر الماس . وقال الأزرقي ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض ذراعان وثلث انتهى .

## حكاية هذا الملحد الذي كسر الحجر الأسود على يد الحاكم العُبيدي

وقال الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن سعدون القيرواني وغيره أن الحاكم العُبيدي لعنه اللّه بعث مع ركب أهل مصر وحجاجهم رجلا من بطانته الملحدين فنظر هذا الملحد وقت خلوّ الحرم من الناس عند انقضاء أيام التشريق ثم هجم على الحجر الأسود فضربه بدبوس فهشمه وانصدع بأكثر مما كان، فرآه بعض أهل مكة وتنادى الناس من كل جانب فأدركوا الملحد وقطعوه قطعا ثم نهبوا ركب المصريين الذين كان هذا الملحد في صحبتهم بعد أن قتلوا منهم خمسمائة رجل، قاله البكري وقال إن هذه القصة كانت في عام ثلاثة عشر وأربعمائة، انتهى كلام البكري .

**حكاية أخذ القرامطة الحجر الأسود:**

ولا خلاف بين علماء هذا الشأن أن القرامطة لعنهم الله كانوا اقتلعوا هذا الحجر المبارك من موضعه وذهبوا به إلى بلادهم من البحرين وذلك في عام سبعة عشر وثلاثمائة، فروى أهل العلم أنهم حملوه على عدة من الإبل نحو أربعين، فما حمله بعير إلا رزح وهلك حتى أتلفوا في ذلك إبلا كثيرة واستقر الحجر المبارك عندهم فأصابهم الله بعظائم البلايا وفوادح الرزايا ومنها ما أصاب أميرهم وهو أبو الخبيث الجنابي لعنه الله فأطبق أهل العلم أن الله جلت قدرته سلط عليه علة الجذام الفادح فكان جسده يتقطع أجزاء وطال به ذلك وعذبه الله به في الدنيا أعواما عديدة وقد علم قرابته وأصحابه أن ذلك الذي أصابه إنما عوقب به لأجل جرأته على الله فيما فعل بالحجر الأسود وحاولوه على رده إلى موضعه فامتنع من ذلك عنادا لله تعالى ولجاجا في العمى وأسباب الشقا، ولما مات وصيره الله إلى أبدي نكاله وشديد عذابه تولى أمر القرامطة أخوه فتطيّر بالحجر الأسود ولم يبدأ بشيء قبل رده إلى موضعه من الكعبة فكانت غيبته عنها اثنين وعشرين عاما فيما حققه البكري، وقال غيره تسعة وعشرون عاما . وقد كان ملوك الإسلام بعثوا إلى أمير القرامطة الأجذم الهالك لعنه الله أن يرد الحجر المبارك إلى موضعه ويبذلوا له ما شاء من الأموال حتى عيّن له بعضهم خمسين ألف دينار، فامتنع حتى رده الله بجميل صنعه .

وقال أبو الفرج الجوزي في كتابه مرآة الزمان، لما جاء رسول القرامطة بالحجر الأسود إلى مكة حين ردوه إليها اجتمع جميع أهلها

وعلمائها وعظم فرحهم بذلك وكثر شكرهم لله عليه فلما رآهم رسول القرامطة على ذلك قال : وبما أمنتم أن نكون أتلفنا حجركم الأسود وجئناكم بحجر يشبهه من بعض الأودية . فقال بعض علماء مكة أن الحديث ورد عن نبينا محمد ﷺ فإن الحجر الأسود إذا ألقي في الماء فلا يغطس فيه وأن النار لا تعدو عليه . فقال القرمطي الرسول المذكور : لا أبرح حتى أختبر هذا . فدعا بإناء كبير فملأه بالماء ثم وضع الحجر المبارك فيه فلم يرسب بل طفا على وجه الماء ثم أوقد عليه النار ثلاثة أيام فلم تعدّ عليه البتة، فعجب القرمطي وقال هذا دين محفوز يعني الإسلام، انتهى كلام الجوزي . وفيه أن النار لم تعدُ على الحجر الأسود في هذه القصة وأهل الأخبار أجمعوا على أنه انصدع في حصار أهل الشام لابن الزبير . وروى الأزرقي وغيره أن ذلك كان بحريق النار الذي أصاب جميع الكعبة وقيل بحجارة المنجنيق، ومما يؤيد أنه انصدع بالحجارة أن أهل الشام نصبوا المنجنيق على جبل أبي قبيس بلا خلاف في ذلك وهو يواجه باب الكعبة والملتزم والحجر الأسود من غير شك، فترجح أن الحجر الأسود كان انصداعه بحجارة المنجنيق لا بحريق النار وصحّ إن شاء الله الحديث الذي تقدم ذكره فيما نقل الجوزي وأن النار لا تعدو عليه ويكون ذلك من آيات الإسلام وباهر معجزات نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

ذكر باب الكعبة:

قالوا أول من جعل الباب لها تُبّع أسعد أبو كرب، وقيل غيره، وأول من جعل حلية الذهب والفضة على بابها عبد المطلب كما ذكر ابن إسحاق . ثم لما جددت قريش بناء الكعبة جددوا بابها وجعلوه

شـرقيا وجعلـوا عليـه دفـة واحـدة ثـم جعـل عليهـا ابـن الـزبير بـابين شـرقيا وغربيـا ، فعـوّض الحجـاج البـاب الـشرقي بـأن جعلـه مرتفعـا عـن الأرض بعـد أن كـان ابـن الـزبير جعـل بابيـه ملتـصقين بـالأرض ثـم بنـا الحجـاج بابـا غربيـا يقابـل البـاب الـشرقي في سمتـه وفي ارتفاعـه عـن الأرض ثـم سـدّ الغربـي فهـو مـسدود بـاق مـشاهد إلى الآن، وثبّـت بابـه الـشرقي بابـا للكعبـة فهـو بابهـا إلى الآن وهـذه خلاصـة كـلام الأزرقـي في هـذا المحـل . ثـم قـال رحمـه اللّه أن ارتفـاع بـاب الكعبـة عـن الأرض عـشرة أشـبار وبـين البـاب وبـين الـركن الـذي فيـه الحجـر الأسـود عـشرة أشـبار أيـضا محققـة وأول مـن جعـل علـى بـاب الكعبـة مـصراعين اثـنين عبـد اللّه بـن الـزبير وقـد جعلـهما مـن خـشب رفيـع وغـشاهما بـصفائح الفـضة ثـم جُـدّد هـذان المـصراعان مـرارا ، منهـا تجديـد جمـال الـدين الجـواد وزيـر ملـوك بـني زَنْكـي بالـشام في أواسـط المائـة الـسادسة وقـالوا إنـه أخـذ المـصراعين القـديمين اللـذين كانـا علـى الكعبـة فجعـل منهمـا تابوتـا وأوصـى أن يحمـل جـسده بعـد موتـه في ذلـك التـابوت إلى المدينـة النبويـة المـشرفة فيـدفن في تربـة ونفهـا هنالـك فـتم لـه ذلـك كلـه لـصدق نيتـه وخـالص يقينـه رحمـة اللّه عليـه . وقـال تقـي الـدين الفاسـي آخـر مـن جـدد مـصراعي الكعبـة : الـسلطان حـسن بـن محمـد بـن قـلاوون في سـنة إحـدى وسـتين وسـبعمائة، انتهـى كلامـه . وهـو البـاقي عليهـا إلى الآن واللّه أعلـم إلا أن يكـون جـدده برقـون أو ولـده في فـواتح هـذه المائـة التاسـعة . وقـد شـاهدنا هـذين المـصراعين في عـام سـتين وثمانمائـة وقـالوا لنـا إنهمـا مـن خـشب الـصندل ورأينـا عليهمـا صـفائح مـن فـضة مـسمرة بمـسامر مـن فـضة وجميـع ذلـك ممـوه بالـذهب ولهمـا نقارتـان صـنيعتان مـن فـضة أيـضا مموهـة بالـذهب، وقـال الأزرقـي طـول فرجـة بـاب الكعبـة سـتة أذرع وعشرة أصابع وعرضها ثلاثة أذرع وثمانية عشر أصبعا .

ذكر ملتزم الكعبة:

الملتزم هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود من شرقي جدارها وهو عشرة أشبار محققة كما تقدم نقله عن الأزرقي . وقال الأزرقي وغيره أن الرسول ﷺ باشر هذا الموضع المبارك بصدره الكريم وأمرّ عليه وجهه المبارك وخديه وألحّ بالدعاء فيه، وورد في الحديث أن الدعاء فيه مستجاب وهذا الموضع هو الملتزم عند جمهور أهل العلم . ورُوي أنه في غربي جدار الكعبة وهو ما بين الركن اليماني وبابها الغربي المسدود والظاهر أن كليهما يسمى الملتزم، فالاحتياط أن يقصد كل واحد منهما بالدعاء والتبرك والله الموفق .

ذكر سقف الكعبة وميزابها :

ظاهر كلام أبي عبيد البكري أن قصيا أول من سقفها وقال إنه سقفها بخشب الدوم، انتهى كلامه . وشجر الدوم يشبه النخل شبها بينا وهو بالحجاز إلى الآن كثير . وعند غير البكري أن قريشا أحدثوا سقفا للكعبة وكلام البكري أثبت والله أعلم . ولا خلاف أن قريشا لما سقفوا الكعبة جعلوا سقفها ميزابا يصوب إلى حِجر إسماعيل . ولما جدد ابن الزبير بناء الكعبة جدد لها سقفا بارعا من خشب الساج وجعل ميزابها من رصاص وقال الأزرقي أول من غشاه بالذهب الوليد بن عبد الملك وقال إن طول الميزاب في عهده وهو أواسط المائة الثالثة أربعة أذرع وعرضه ثمانية أصابع هكذا شاهده الأزرقي وحكى ما شاهد منه وأظنه كذلك كان من أول وضعه . وقال ابن جبير في رحلته أنه وجده من نحاس مغشى بالذهب وطوله أربعة أذرع وعرضه شبر واحد، انتهى كلام ابن جبير . وقال تقي الدين الفاسي

أول من جدد الميزاب الخليفة الناصر العباسي في أواسط المائة السادسة، انتهى كلام تقي الدين . ولا أدري هل جُدد الميزاب بعده أم لا، وقد شاهدت ميزاب الكعبة في عام حجي فرأيته وهو من ذهب خالص شديد اللمعان وعرضه أزيد من ذراع وطوله بارز عن جدار الكعبة أزيد من ذراعين، وما يصب إلى حجر إسماعيل بجوف الكعبة . وروى الأزرقي عن عطاء بن أبي رباح أنه قال من قام تحت شعب الكعبة ودعا استجيب له وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، انتهى كلامه، وشعب الكعبة هو ميزابها المذكور والله سبحانه وتعالى أعلم .

**ذكر حجر الكعبة وركنها اليماني :**

لا خلاف بين علماء هذا الشأن من عهد الصحابة الذين شاهدوا ما غيّر الحَجّاج من فعل ابن الزبير في الكعبة إلى هلم جرّا في أن بعض الحجر من الكعبة فأما في زمن قريش قبل الإسلام فإنهم تركوا من الكعبة في الحِجر ستة أذرع وشبرا حسبما حققه الأزرقي، وأما في عهد الحجاج فإنه عندما نقض جوف الكعبة الذي بناها به ابن الزبير أخرج الحِجر منها كما كان في زمن قريش وتحرّ قياس الأذرع التي كانت قريش تركت من الكعبة في الحِجر ففعل مثل فعلهم حشره الله مع جاهليتهم، والكعبة إلى الآن على ما تركها عليه الحجاج . وقال الأزرقي طول الحِجر من بابه الشرقي إلى بابه الغربي عشرون ذراعا وعرضه من جدار الكعبة تحت الميزاب إلى جداره هو سبعة عشر ذراعا وثمانية أصابع ومن هذا العرض ستة أذرع وشبر كلها من الكعبة وباقيه من مجلس إسماعيل حيث كان يجلس في فناء الكعبة

هنالك انتهى معنى كلام الأزرقي . وشكل هذا الحِجر مستدير ولذلك قال البكري كأنه نصف دائرة وعلى هذه الصفة بنته قريش ثم تبعهم الحجاج على ذلك . فأما ابن الزبير فلم يثبت عنه ذلك مع أن بعض علماء هذا الشأن قال إن إبراهيم عليه السلام جعل جوفي الكعبة مكعّبا مستديرا فلما نقضت قريش الكعبة وقصرت نفقتهم عن أن يبلغوا بها من جوفيها إلى أساس إبراهيم جعلوا حول باقي أرض الكعبة من جوفيها حوطة مستديرة مراعاة منهم لأصل بناء إبراهيم في استدارة جدار جوفي الكعبة وقائل هذا يقول سُميت كعبة الاستدارة مؤخرها كما هي صفة الكعبة . وهذه صورة الكعبة وحجرها تقريبا للأذهان والله تعالى أعلم .

فالحجر تراه مستديرا وبينه وبين الكعبة فرجتان إحداهما في شرقه والأخرى في غربه وهما البابان اللذان قال الأزرقي عنهما بابه الشرقي وبابه الغربي، فلا باب هنالك ولا مصارع وإنما هما فرجتان يدخل الناس من إحداهما ويخرجون من الأخرى، ودخول الحجر لقصد الدعاء فيه تحت الميزاب وعند قبر إسماعيل وأمه هاجر . فقد روى الأزرقي أن ابن الزبير لما حفر أساس الكعبة عثر بداخل جوفيها على صندوق من رخام فسأل عنه مشايخ قريش فقالوا ذلك قبر إسماعيل فتركه في موضعه وإلى الآن قد جعل في موضع قبر إسماعيل وأمه رخامة خضراء بديعة اللون وهي علامة على القبرين تحت ميزاب الرحمة فدخول الحجر للدعاء عند القبرين تحت الميزاب مظنة للإجابة حسبما روي في الآثار، فأما صلاة الفريضة فيه فلا تجزؤ عند مالك رحمه الله لأن المصلي يستدير بعض الكعبة ولا بد من استقبال جميعها، وصلاة النافلة مكروهة فيه لأنها صلاة في جوف الكعبة

ومالك يكره الصلاة في جوفها لأجل استدبار بعضها ولم يزل هذا الحجر مفروشا بالرخام الملون الرفيع من عهد الوليد بن عبد الملك ومحمد المهدي العباسي وقد حكى ابن جبير في رحلته أنه أدرك من ذلك شيئا عجيبا وبالغ في أوصاف محاسنه ونحن شاهدناه في عام ستين وثمانمائة وهو مفروش بالرخام الملون غير مرقوم ولا مختلف صناعة النقش كما وصف ابن جبير وأخبرونا هنالك أن ذلك كله من تجديد الملك الظاهر حِقْمَقْ في أواسط هذه المائة التاسعة . وقال الأزرقي طول جدار الحجر في الهواء ذراعان وثلاثة أصابع، وقال البكري عرض جدار الحجر ذراعان ينقصان أصبعين، انتهى كلامهما . وعندي أن طوله وعرضه اليوم لا يبلغ لهذا القياس والله أعلم . وقال البكري ذرع دائرة الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعا ومن خارجه أربعون ذراعا انتهى كلام البكري . ولا بد عند علماء، جميع علماء أمة محمد ﷺ من الطواف بجميع الحجر من خارجه احتياطا على صحة الطواف بجميع الكعبة لأن حد أساسها فيه غير معلوم، فلا بد من الطواف به مع الكعبة .

وأما الركن اليماني فهو ركن الكعبة الجنوبي الغربي ونعني أنه يواجه الجنوب بأحد وجهيه ويواجه الغرب بالآخر وهو مبني في شركة ركن جدار الكعبة من هنالك وهو حجر قائم البناء كأنه كدّان أو صوان شديد الصلابة ولونه مكرر البياض والناس يخصونه بالاستلام ويسمونه الركن اليماني، يتناقلون ذلك جيلا بعد جيل من عهد الرسول ﷺ، ورأينا عليه طلا الطيب كثيرا فهو متراكم عليه، وإلى هذا الركن قبلة أهل اليمن فلذلك يسمى اليماني والله أعلم .

وقد وردت فيه أحاديث للأزرقي وغيره أنه ﷺ قال ما جئت الركن اليماني إلا وجدت عنده ملكا وفي رواية إلا وجدت عنده جبريل عليه السلام . ولم يذكر الأزرقي والبكري طوله وعرضه وأنا أظن طوله أزيد من ذراع وعرضه أقل من شبر وفيه جسارة لأن الطيب متراكم عليه بخلاف الحجر الأسود فإنه صاف في الملوسة شديد بريق السواد كأنه مرآة صقيلة والناس يجعلون عليه طيبا كثيرا من أنواع الغالية فلا يثبت ذلك عليه لصفاء ضوء ملوسته وقد زانه الله بالفضة التي جمعت بها أجزاؤه فهي شديدة صفاء البياض في شدة بريق سواده وصفائه وعليه مهابة عظيمة يدركها أهل كمال اليقين ولا لذة عندهم تشبه لذة تقبيله بالفم فمن قبله من الموقنين أدرك اللذة والمهابة معا ويستنشق مع ذلك ريح عطر لا تشبه شيئا من روائح عطر الدنيا ، والحجر الأسود يمكن تقبيله بالأفواه لأن ارتفاعه على الأرض ذراعان وأصابع كما تقدم للأزرقي، وأما حجر الركن اليماني فإنه مرتفع فوق قامة الإنسان فيرفع الناس أيديهم إليه ويستلمونه ولا يمكن تقبيله بالأفواه .

ذكر كسوة الكعبة:

قالوا أول من كساها تُبّع المؤمن وهو أسعد أبو كرِب الذي آمن بنبينا محمد ﷺ وبشر به، لأنه لما حج إلى الكعبة أمر في منامه أن يكسوها فكساها وصائل ثياب اليمن، ثم لم تزل الكعبة يكسوها ولاة أمر مكة وأكابر العرب من خزاعة وقريش حتى جاء الله بالإسلام فكساها النبي ﷺ بعد فتح مكة ثيابا بيضا من قباطي مصر قالوا واشترى هذه الكسوة من مال الفيء عليه صلوات الله

وسلامه . ثم تبعه على ذلك خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم فكسوها من مال في الإسلام وصائل قباطي بيض من عمل أهل مصر، وأول من كساها الحرير والديباج معاوية رحمه الله وقيل عبد الله بن الزبير، وقد أبطل الذي قال أول من كساها الحرير يزيد بن معاوية لأن يزيد بن معاوية لم يكن مشغولا بتعظيم حرمات الله فيعتني بكسوة الكعبة بل فلَتاته المحفوظة عنه في الدلالة على زندقته بنقده عن ذلك مع محاربته لابن الزبير وممانعة ابن الزبير له من التمكن من مكة . والصحيح في هذا ما رواه الإمام الأزرقي رحمه الله وهو أن الكعبة كانت في الجاهلية وصدر الإسلام إذا كسيت كسوة جديدة تتعلق فوق كسوتها القديمة حتى كانت متراكمة عليها بعضها على بعض، وكل ما تقادم منها وأخذه البلى بطول المدى فإنه يتساقط وحده فيأخذه خدمة الكعبة ويدفنونه . ورُوي أن عمر بن الخطاب كان يتصدق بقديم كسوة الكعبة على فقراء الحجاج، ولما كانت أيام معاوية واتسعت مملكة الإسلام نظر في تراكم الكسوات على الكعبة وبعضها من عهد الجاهلية فأراد أن ينزع عنها جميع آثار الجاهلية وجردها من جميع ما عليها وكساها كسوة حرير حمراء رفيعة بارعة ثم جددها ابن الزبير بلا خلاف، ثم تبعه على ذلك ملوك بني مروان من بني أمية وجماعة من ملوك بني العباس فكلهم كانوا يكسونها الحرير الحمر حتى كانت مدة محمد الأمين بن هارون الرشيد فكساها كسوة حرير مختلف الألوان حتى كثرت بل وتبعه على ذلك أخوه عبد الله المأمون وجميع ملوك العباسيين بعده إلى عهد جعفر المتوكل منهم وكانوا يعلقون الكسوة عليها وصائل مختلفة الألوان حتى كثرت تعاليق الكسوة فأمر المتوكل بتجديد الكعبة من جميع تعاليق الكسوة وأن يكسوها كسوة خفيفة . قال

الأزرقي لما ورد أمر المتوكل بذلك إلى مكة في عام أربعة وأربعين ومائتين حضرتُ لتجديدها فحَسَبْتُ وصائل كسوتها فكانت مائة وسبعين، انتهى كلامه رحمه الله . ثم تلثمهت الدولة العباسية وحجرتهم الترك والديلم فكان القائمون منهم بمنصب الخلافة يكسون الكعبة على عادة الخلفاء العباسيين حتى غلبهم بنو عبيد الله الملحدون على ملك مصر والحجاز فكان ملوك العبيديين يكسون الكعبة . قال علماء هذا الشأن وقد كساها منصور الحاكم لعنه الله من ملوك العبيدية كسوة حرير بيضاء خالف فيها جميع من تقدمه فلما وهنت دولتهم أتلفها الله على يد صلاح بن أيوب كان صلاح الدين يكسو الكعبة نائبا عن صاحب منصب الخلافة لأنه كان تحت طاعته ويدعو له في جميع عمالته . ثم تولى ملك مصر والشام والحجاز قرابة صلاح الدين بعد موته رحمه الله فكانوا يكسون الكعبة حتى ضعف أمرهم وتراجع أمر بني العباس بعض الشيء فبعث المستضيئ منهم إلى الكعبة بكسوة حرير خضراء لا ندري هل سبقه بذلك أحد غيره أم لا . وقد حكى أبو الحسن بن جُبير في رحلته أنه شاهد على الكعبة كسوتها الخضراء في عام تسعة وسبعين وخمسمائة وهي من مدة الخليفة المستضيئ المذكور . ثم عادت دولة بني العباس إلى ضعفها و[ هجرتهم ] الأتراك فكانوا يبعثون إلى الكعبة بكسوتها حرير حمراء حتى قرضت دولة بني العباس في عام ستة وخمسين وستمائة فكانت كسوة الكعبة يبعث بها ملوك مصر من الأتراك تارة وملوك بني رسول من اليمن تارة بحسب غلبة كل دولة منهما على أرض الحجاز حتى وهنت دولة بني رسول واستعْلت دولة ملوك الأتراك بشماخة أمر الملك الظاهر بيبرس فكان يكسو الكعبة كسوة حرير سوداء حالكة، قالوا وهو أول

من جعل ذلك وتبعه عليه الأتراك بمصر حتى تولى ملك مصر السلطان قلاوون وأولاده من بعده فكسوا الكعبة كسوة حرير مختلف لون سوادها ببياض وعلى ذلك شاهدها المتصوف السائح محمد بن بطوطة الطنجي حسبما حكى في كتاب رحلته وذلك في حجته الأولى عام سبعة وسبعين وسبعمائة .

ثم انقرضت دولة بني قلاوون على يدي الملك الظاهر برقوق وولده فرج من بعده فكسوا الكعبة كسوة حرير سوداء في نسجها صناعة تختيم وفي أعالي وصائلها مقدار ذراع منسوج بالذهب ويظهر كأنه قلادة ذهب في عنق الكعبة إذا دار منتظما بها واتصلت وصائل الكسوة بالربط على جدراتها الكعبة ثم يعلقون على باب الكعبة قطعة من وصائل الكسوة عريضة أعرض من جميع وصائلها بحيث تستر عضادتي الباب وكلها منسوجة بالذهب ويسمونها البرقع، فعلى هذه الصفة هي كسوة الكعبة الآن منذ زمان وقد تحققت من جهة الذين لقيتهم بمصر من قضاتها وعدولها أن كسوة الكعبة تقام بالقاهرة من أوقاف عليها وأجرة حتى صار أكابر قضاتهم ونظار أحباسهم يتنافسون في ولايتها ولا خلاف أن الكعبة مكسوة من داخلها كما هي مكسوة من خارجها إلا أن كسوة داخلها الآن من حرير أحمر فيما أخبرني به الذين دخلوها فإني لم أدخلها والله كل يوم هو في شأن .

وبعد الفراغ من ذكر الكعبة في ذاتها وحجرها الأسود وركنها اليماني وبابها وسقفها وميزابها وحجر إسماعيل الذي بقبائها وكسوتها التي عليها نذكر المعالم القريبة منها المتعلقة بها والله المستعان، وأول ذلك :

## مـقـام إبـراهـيم:

هـو حجـر رخـامي المعـدن ولونـه مغـير عـن البيـاض، فقـال الأزرقـي وغـيره أنـه في لونـه يـشبه حجـر المـسان يعـني الـذي تـسن وتـشحذ عليـه الـسكاكين . وهـذا الحجـر المبـارك قـد شـاهدناه بفـضل الله ولـيس في لونـه خـضرة ولا دكنـة ولكنـه يـضرب بياضـه إلى الحمـرة فهـو أصـهب اللـون فيمـا يظهـر والله أعلـم . وأبـو عبيـد البكـري لم يتعـرض لـذكر لونـه البتـة، فقـول الأزرقـي أنـه يـشبه حجـر المـسان مـع صـهوبة لونـه يـدل علـى أن حجـارة كانـت عنـد أهـل مكـة والحجـاز في ذلـك العـصر علـى تلـك الـصفة وذلـك ممكـن والله تعـالى أعلـم . وقـال الأزرقـي طـول حجـر المقـام ذراع، وقـال البكـري أحـد عـشر أصـبعا وكـلام الأزرقـي أثبـت مـع تغريـب مـا قـالاه رحمهمـا الله . ثـم اتفقـا علـى أن عـرض أعـلاه أربعـة عـشر أصـبعا، وقـال الأزرقـي إن عـرض أسـفله مثـل ذلـك، انتهـى كلامـه . والـذي يظهـر لـي أن أعـلاه أوسـع مـن أسـفله ويؤيـد ذلـك مـا قالـه ابـن جـبير في رحلتـه فإنـه صـرح بـأن أسـفله أضـيق مـن أعـلاه وشـبهه بكـانون الفخـار. وقـال البكـري حجـر المقـام لـه ثمانيـة وجـوه وفي مرويـات الأزرقـي وغـيره أن أصـل هـذا الحجـر المبـارك مـن الجنـة ولا خـلاف بـين الأمـة أن الحـرفين اللـذين بـأعلاه همـا أثـرا قـدمي إبـراهيم الخليـل عليـه الـسلام وأنهمـا غاصـتا فيـه كمـا تغـوص قـدم الإنـسان في الطـين، ولـذلك جعلـه الله مـن الآيـات البينـات كمـا قـال تعـالى : ﴿ *فيـه آيـات بينـات مقـام إبـراهيم* ﴾ وعمـق أثـر قـدمي الخليـل في هـذا الحجـر نحـو شـبر . وقـال الأزرقـي أن أثـر أصـابعه ظـاهر في قعـر حفـر الأثـر، وقـال ابـن جـبير انـه شـاهد أصـل أثـر الأصـابع هنالـك، وقـال الأزرقـي بـين أثـر القـدمين

الكريمتين هنالك عرض أصبعين وكذلك قال البكري .

**فائدة** : لم ينبه عليها أحد من أهل هذا الشأن وهو أن مقدار قدمي إبراهيم عليه السلام ليس بأكبر من آثار أقدام عصرنا وما قبله إلى عهد نبينا ﷺ، وإنما كانت أجسام الناس عظيمة الخلق من عهد آدم إلى عهد عاد وثمود والعمالقة وبعض جُرهم ومن بعدهم بقريب . فأما من عهد إبراهيم إلى ما بعده من عهد موسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام إلى عهد نبينا ومولانا محمد ﷺ فإن أجسامهم معتدلة الخلق وعلى ما هي أجساد الناس إلى هذا العهد، وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال خلق آدم وطوله ستون ذراعا في السماء فلم يزل الخلق ينقص الآن، وأراد ﷺ أن النقص لم يقع في العالم الإنساني إلا بتدريج بعد تعاقب الأزمان ولم يرد أن النقص لم يزل يظهر في بني آدم حتى لوقت هو عليه الصلاة والسلام بل ما قبل ذلك إلى عهد إبراهيم داخل في قوله فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن ويدل على صحة هذا قوله ﷺ : " أنا أشبه ولد إبراهيم به " يعني في صفة خلق جسده كله من وجهه إلى قدميه فلو نقص طول خلق الناس من عهد إبراهيم إلى عهد المولى المصطفى لما كان صورتيهما تشابه . وقد روى بعض أهل السير له بعض القافة في الجاهلية قدم مكة في حياة عبد المطلب والنبي ﷺ يومئذ غلام يافع بين يدي جده عبد المطلب فلما رآه القائف تأمله شديدا ثم قال لعبد المطلب : احتفظ بولدك هذا فليكونن له شأن عظيم لأني ما رأيت قدما أشبه بقدم إبراهيم التي أثرها في حجر المقام من قدم هذا الغلام، انتهى .

**التنبيه** : وقد قال علماء هذا الشأن أن إبراهيم عليه السلام وقف

على حجر المقام ثلاث مرات، الأولى في حين بنائه للكعبة والثانية حين جاء راكبا على البراق إلى مكة ووجد زوجة ابنه إسماعيل الثانية فأكرمته وعرضت عليه أن تغسل رأسه وتمشطه فأجابها إلى ذلك وامتنع من النزول عن دابته لأن زوجه سارة كانت استحلفته أن لا ينزل عن مركوبه غيرة عليه من أن يطأها جرام إسماعيل فوضعت على كفته حجر المقام فوضع قدمه اليمنى عليه وأمال لها يشق رأسه الأيمن حتى مشطته وغسلته ثم وضع عليه قدمه اليسرى وأمال لها شق رأسه الأيسر وهو يتكئ على حجر المقام بقدميه الكريمتين فلما فرغت من غسل رأسه ظهر أثر قدميه في الحجر المذكور، فيما نقل ابن إسحاق وأهل السير. والمرة الثالثة قيام إبراهيم على هذا الحجر حين أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج قالوا فقام قائما عليه [ في ] بابه الحجر وعلا حتى صار كأشيخ جبال الدنيا وحين فرغ إبراهيم من آذانه عاد الحجر إلى حاله، هكذا روى الأزرقي وذكر أن تأثير قدمي إبراهيم في حجر المقام كان في هذه المرة التي علا عليه فيها ليؤذن بالحج فالله أعلم. ولم يزل قط هذا الحجر المبارك بأثره المبارك معظما متبركا به محتاطا عليه من عهد إسماعيل عليه السلام وأولاده وأخوالهم جُرهم ثم خُزاعة بعدهم ثم قريش وكانوا يجعلونه في بيت للكعبة مع ذخائرها، فلما بعث الله رسوله محمدا ﷺ وأنزل عليه قوله الصادق : ﴿ *واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى* ﴾ أمر ﷺ بإخراج حجر المقام من جوف الكعبة ووضعه بإزائها من شرقيها قريبا من سمة بابها وندب الناس إلى الركوع عنده إذا فرغوا من أسابع الطواف، فكانوا يستقبلون الكعبة وهو عند جدارها ملاصقا لها ثم يركعون قريبا منه حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثر

أهــل الإســلام فــصار الراكعــون عنــد المقــام يــشوشون علــى الطــائفين والطــائفون بالكعبــة يــشوشون علــى الــراكعين فأخــذ عمــر حجــر المقــام بيــده وأخــره إلى الموضــع الــذي هــو بــه إلى الآن فهــو في طــرف عــرض مطــاف الكعبــة مــن شــرقيها بينــه وبينهــا عــرض المطــاف، وقــال الأزرقــي ركــن الكعبــة الــشرقي الجنــوبي الــذي فيــه الحجــر الأســود وبــين مقــام إبــراهيم تــسعة وعــشرون ذراعــا وتــسعة أصــابع، انتهــى كــلام الأزرقــي . وقــد كــان هــذا الحجــر المبــارك مكــشوفا في زمــن الجاهليــة وصــدر الإســلام يلمــسه النــاس بأيــديهم للتــبرك بــه حتــى أثــر ذلــك فيــه بكثــرة لمــس أيــديهم فيمــا حكــاه علمــاء هــذا الــشأن فغــشاه أوائــل ملــوك الإســلام بــصفائح الــذهب والفـضة صـيانة لـه مـن تـأثير كثـرة الأيـدي . وقـال الأزرقـي أول مـن كـساه صــفيحة الــذهب محمــد المهــدي العباســي ثــم جــددها المتوكــل، انتهــى كــلام الأزرقــي . وقــال الخزاعــي روايــة الأزرقــي أنهــا جــددت بعــد المتوكــل في سنة ست وثمانين ومائتين، انتهى كلامه .

وقــد رأيــت هــذا الحجــر المبــارك في يــوم النحــر مــن عــام حجــتي فرأيــت علــى ســطح أعــلاه صــفيحة فــضة مموهــة بالــذهب غائــصة في أثــر القــدمين في غمقهــا فلــم أعلــم كيــف التــصقت تلــك الــصفيحة علــى ذلــك الحجــر الــصلد وعنــدما فــسد الزمــان وخيــف علــى هــذا الحجــر المبــارك طــوارق الحــدثان لاســيما في عهــد أعــداء الله الملحــدين مــن القرامطــة والعبيــديين جعــل عليــه شــباك مــن حديــد صــنيع التخــريم وجعلــوه علــى مقـداره ثـم جعـل فـوق شـباك الحديـد شـباك خـشب أعظـم جِرمـا مـن شـباك الحديــد كــل ذلــك مبالغــة في صــيانته وأن لا يوصــل إليــه . ثــم تــأنق الملــوك المتــأخرون في العنايــة بــه فــأفرغوا علــى شــباكه الأعلــى كــسوة حريــر ونحــن شــاهدناها مختلطــة الــسواد ببيــاض في بــديع توريقهــا وإحكــام

صناعتها وشاهدناها محيطة على قدر الشباك وهو مضبب العلى ليس بمربع، فعلى هذه الصفة شاهدناه وليس يظهر الان حجر المقام ولا يراه أحد من الناس البتة لأجل الشبابيك وكسوتها وإنما يراه من يحضر لآنكشافه في وقت تبديل كسوته يوم عيد النحر لأن حجبة الكعبة يجددونها من كسوتها القديمة يوم النحر ويعلقون عليها كسوتها الجديدة التي يأتي بها أمير الحجاج من مصر وكذلك يجددون شبابيك مقام إبراهيم من كسوتها القديمة ويفتحون أبواب شباكيه ويكسونه ويكسون ما حوله ثم يتركونه مكشوفا بقية يوم عيد النحر ليراه الحجاج الغرباء ويشاهدوه، وفي هذا اليوم رأيته بعد طوافي للإفاضة فركعت عنده بعد الطواف وتمتعت بمشاهدة آيات الله البينات منه وهو بشباكيه وكسوته في بيت صغير مربع الجهات وسقفه قبة غير مرتفعة وفي هذا البيت وحواليه يركع الطائفون بالكعبة عند فراغهم من أسابيع طوافهم . ومن بركات هذا الحجر المبارك سلامته من أعداء الله ملحدة القرامطة فإنهم دخلوا مكة وقتلوا الحجاج حول الكعبة وملئوا بئر زمزم بالقتلى واقتلعوا باب الكعبة ليزيلوا ما عليه من صفائح الفضة والذهب ونهبوا ذخائرها وهداياها التي كانت في جوفها واقتلعوا الحجر الأسود لا لفائدة دنيوية فيه ولكن ليظهروا كفرهم وتهاونهم بديانات الإسلام عليهم لعنة الله وغضبه . فعند ذلك بادر بعض فضلاء أهل مكة بحجر المقام، فاحتمله من موضعه وذهب به إلى بعض جبال مكة فاختبأه هنالك حتى كشف الله فتنة أعدائه القرامطة فرده إلى موضعه سالما من شرهم والحمد لله والمنة، وقد فعلوا في الحجر الأسود ما تقدم ذكره حتى أصابهم الله بشديد بلائه وانتقامه فردوه إلى موضعه فظهرت آيات الله ونعمته في سلامة الحجرين المباركين من معرتهم

فله الشكر كما يجب لجلاله . وأشهر الآثار الواردة في فضل مقام إبراهيم ما ذكره القاضي عياض في الشفا أنه ﷺ قال من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحشر يوم القيامة من الآمنين .

**ذكر مُطاف الكعبة :**

وهو الذي إذا طاف بها الطائفون مشوا فيه فهو محيط بالكعبة على استدارة وكله مفروش بحجارة جيدة تشبه [ الكذان] وقال علماء هذا الشأن أول من فرشه بالحجارة عبد الله بن الزبير ثم جدد مرارا وليس بأرض المسجد الحرام كله شيء مفروش بالحجارة سواه وباقي المسجد محصب بحصباء يعوض في كل عام عند انقضاء مواسم الحج لأجل تلويث الجهال له . وعرض المطاف نحو عشرين ذراعا من جميع جهات الكعبة وهو مستدير الشكل بها وقد بنيت حواليه عرص وثيقة طول كل عرصة منها قدر قامة الإنسان وعرضت فوقها خشب فيها حلق حديد صغيرة تعلو فيها قناديل الكعبة لاستصباح الكعبة ومطافها ، وأخبرونا أن الزيت يبعث بها إليها وإلى مسجدها الحرام وإلى مسجد الرسول بالمدينة في كل عام مع أمير الحج وذلك من أحباس وافرة أكثرها ببلاد الشام .

**ذكر حطيم الكعبة :**

وقد اختلف الناس في تعيينه ، فرجح أبو عبيد البكري وغيره أن الحطيم هو ما بين الكعبة وبين زمزم ومقام إبراهيم فهو كناية عن بنائها الشرقي وقال آخرون بل بناء الكعبة من جميع جهاتها يسمى حطيما لأن الدعاء فيه على الكفار والظلمة يحطمهم أي يهلكهم .

وقد انتهى ما يتعلق بالكعبة وذكرها في ذاتها ، فلنذكر مسجدها الحرام المبارك في بدايته ونهايته على الإيجاز في ذلك والتمام بحول الله وعونه والله الموفق بمنه .

**ذكر بداية المسجد الحرام ونهايته**

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما بنا الكعبة لم يجعل عليها حاجزا بينها وبين غيرها من ذلك الوادي المبارك بل من عهده عليه السلام وما بعده كان مطافها وما حولها من بنائها هو مسجدها وعند جمهور المفسرين أن كل ما وقع في القرآن من ذكر المسجد الحرام فالمراد به الكعبة ومطافها الذي كان يصلى فيه ويطاف على عهد الرسول ﷺ إلا قوله تعالى في المشركين : ﴿ *فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا* ﴾ فإن المراد به مكة كلها بل وجميع حرمها . وكانت قريش عندما جمعها قصي بن كلاب من نواحي مكة وشعابها بنوا الدور والأعرشة المكنّة من الحر والمطر بأحسن مما فعلت من ذلك جُرهم وخزاعة ، فكانت بطون قريش وقبائلها يجعلون مجالسهم حوالي الكعبة يتشرفون بذلك ويفتخرون به على سائر العرب ، وكان أكابرهم يبنون منازلهم قريبة منها قصد الاعتزاز والشرف . ورُوي أن عبد المطلب أول من بيّن مطافها عندما كثر البناء حولها ، فاتخذ على المطاف حائطا قصيرا ميّز به حرم الكعبة ثم جاء الله بالإسلام والأمر على ذلك لم يحدث فيه المولى الرسول المصطفى شيئا لأجل مراعاته لثبات الإسلام في قلوب قريش ، وكذلك الصديق أبو بكر رضي الله عنه لم يحدث فيه شيئا حتى كانت خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه فكثر أهل الإسلام ولم يسعهم المطاف

للطواف والصلاة في الجمعات والجماعات فعزم عمر على توسيعه . قال الأزرقي قال عمر لأصحاب الدور التي كانت حوالي الكعبة إنكم دخلتم على الكعبة ولم تدخل عليكم فافسحوا لها ، انتهى كلام الأزرقي . وعمر يعني أن سبقية الكعبة بذلك الوادي المبارك تقتضي أن الحق لها في جميع ما تحتاج إليه من الأرض ولا يستحق غيرها إلا ما فضل عنها . ثم اشترى عمر رضي الله عنه دورا كثيرة مما يجاور الكعبة وزادها في مساحة مطافها فاتسعت خطته ثم بنا له عمر جدارا محيطا به طوله في الهوا قدر قامة إنسان، وقال الأزرقي وغيره أن عمر جعل في هذا الحائط المحيط بهذا المسجد الحرام فُرجا سماها أبوابا ليدخل الناس منها ويخرجوا ، قالوا وكان بناء عمر لهذا الحائط بلبن الطوب، فلم يزل على ذلك حتى تبحّر عمران الإسلام في خلافة عثمان واشترى أيضا دورا كثيرة وزادها في مساحة المسجد الحرام طولا وعرضا ، ثم هدم الجدار المحفظ الذي بناه عمر بلبن الطوب وبناه عثمان بالحجارة الجيدة وجعل طوله في الهواء فوق قامة الإنسان بقليل وأعاد فُرج أبوابه كما كانت في خلافة عمر ولم يجعل عليها مصارع ولا أغلافا وعندما أفضت الخلافة إلى عبد الله بن الزبير اشترى أيضا دورا كثيرة وزادها في مساحة المسجد الحرام ولم يحدث فيه شيئا غير ذلك مع تحديده لبناء الكعبة كما تقدم، فلما قتل رحمه الله وتولى أمر الأمة عبد الملك بن مروان لم يزد في توسيع هذا المسجد المبارك شيئا ولكن نقض جدارته المحيطة به كلها ثم بناها بالحجارة المتقنة المنقوشة وجعل طوله في الهواء أزيد من عشرة أذرع ثم أحدث فيه من داخله أساطين للظلال وهي مجنبات مسقفة تظل الناس وتكنهم من الشمس والمطر وهو أول من فعل ذلك، قالوا وسقف هذه الأساطين

برفيع التسقيف بعد أن أقام لها أقواسا جيدة وثيقة على سواري رخام رفيعة ثم بنا لجميع جهات جدرات المسجد أبوابا منقوشة متقنة وجعل عليها مصارع بديعة وإغلاقا وثيقة وهو أول من أحدث ذلك . وقال الأزرقي وغيره كان عمل عبد الملك بن مروان بالمسجد الحرام هذا الذي ذكرنا في عام ثمانين من الهجرة، ثم تولى أمر الأمة الوليد بن عبد الملك بعد موت أبيه فاعتنى بمسجد مكة والمدينة عناية عظيمة وبدأ في مسجد مكة بنقض جميع الأساطين التي عملها أبوه وجميع جدراته المحيطة به ثم بناها بناء تشييد وإتقان وقوة فادحة وجعل بداخل المسجد مجنبتين متنافذتين فاتسعت بهما الظلال ورفع سقفهما على أقواس رائقة البهجة كثيرة عمد الرخام وبنا جدار المسجد من جميع جهاته بالحجارة المنقوشة الجيدة وجعل طوله في الهواء على ما هو عليه إلى الآن . فقال الأزرقي طوله مما يلي المشرق ثمانية عشر ذراعا وما يلي المغرب اثنان وعشرون ذراعا وما يلي الجوفي تسعة عشر ذراعا وما يلي الجنوب اثنان وعشرون ذراعا، انتهى كلام الأزرقي .

ثم لما قامت الدولة العباسية زاد جعفر المنصور في اتساع المسجد الحرام بدور اشتراها أيضا لذلك، ثم أمر بتذهيب رؤوس سوارى الرخام التي قامت عليها أقواس مجنباته وأنفق في تنميقه أموالا جليلة، ثم لما مات وتولى بعده ولده محمد المهدي، فهو الذي شيد هذا المسجد المبارك وصيره على الصفة التي هو عليها الآن، وقد كانت الكعبة غير متوسطة بصحن المسجد في جميع الزيادات التي زيدت فيه قبل المهدي فبذل المهدي جهده وأموال بيوت ماله في ذلك حتى تم له ذلك بعد مشقات شديدة لحقت أهل هندسة الأرض وصناع البناء من تحت جدارة الجبال والوعر الذي كان هنالك فيما حكاه الأزرقي، فحينئذ

ظهر اتساع هذا المسجد المبارك وتوسطت الكعبة بصحنه وجعل له ثلاث مجنبات متنافذات تظل خلقا كثيرا من الناس حسبما هي باقية مشاهدة إلى الآن . قالوا وجعل لجدرات المسجد شرافات جيدة وهو أول من فعل ذلك . وقال الأزرقي عددها ماتان واثنان وسبعون شرافة ، انتهى كلامه . والباقي الآن من الشرفات عدد قليل بالجانب الشرقي منه فيما شاهدناه وذلك والله أعلم ذهب بطول المدا وتغير أغراض الأمراء . وقال الأزرقي عدد سواري الرخام بالمسجد الحرام أربعمائة وثمانون يزيد بعضها على بعض في الطول والغلظ، فأكثرها طوله عشرة أذرع وتدويرها ثلاثة أذرع ومنها أربع وأربعون ليست برخام ولكن مبنية بالحجارة الجيدة والطين عملت في مدة موسى الهادي بعد موت أبيه المهدي، لأن البناء عن أمر المهدي لم يفرغ منه حتى مات فأكمله ولده موسى الهادي، انتهى كلام الأزرقي . وقال تقي الدين الفاسي إن جميع سواري الرخام التي كانت بغربي المسجد الحرام أصابها حريق شديد في منسلخ المائة الثامنة أو مفتتح التاسعة فاحترقت حينئذ سقف المجنبات القريبة كلها وسواريها وأقواسها ثم أعيدت عوض تلك السواري عرصات مبنية بالحجارة والطين والله المستعان .

**ذكر مساحة المسجد الحرام :**

لم يذكر علماء هذا الشأن كم كان طوله وعرضه في زمن قريش وصدر الإسلام ولا مساحته حين زاد فيه عمر وعثمان وابن الزبير والوليد وأبو جعفر المنصور وإنما ذكروا مساحته بعد تمهيده بزيادة المهدي وترتيبه . فقال الأزرقي طوله من المشرق إلى المغرب أربعمائة ذراع وعرضه من الشمال إلى الجنوب ثلاثمائة ذراع وأربعة

أذرع، انتهى كلامه . وتبعه عليه أبو عبيد البكري وقد ذكر كلاهما أبوابا كثيرة كانت لهذا المسجد المبارك من عمل الوليد والمهدي وكانت عليها مصارع بارعة وإغلاق وثيقة، وذكر الأزرقي والبكري أنها كانت ثلاثة وعشرين بابا وعينا ماء في كل جهة منها، وكذلك أدركها ابن جبير وعيّنها في رحلته ثم تغير ذلك كله باختلاف أغراض الولاة، فأبواب المسجد الحرام في هذه العصور ومنذ عصور ثمانية أبواب، فثلاثة منها في شرقه يخرج منها إلى المسعى بين الصفا والمروة وهو سوق مكة العظم منذ أزمان، وباب واحد في غرب المسجد يسمى باب إبراهيم وهو رجل من تجار العجم شيّد هذا الباب وجدّده في المائة السادسة، فنسب إليه كذا . قال بعض المتأخرين وأظنه تقي الدين الفاسي وبابان في جنوب المسجد أحدهما باب الصفا لأنه يقابل جبل الصفا وبينهما عرض محجبة واسعة هنالك، وفي جوف المسجد المبارك بابان أحدهما باب الدكة، والدكة سوق الرقيق بمكة، والثاني باب حزورة، وحزورة جبل صغير كان هنالك حسبما يأتي ذكره إن شاء الله .

## ذكر صوامع المسجد الحرام:

وهي مما أحدث ملوك الإسلام، فهي خمس صوامع أربع منها في اركانه الأربعة وواحدة في أواسط جداره الجوفي تقابل حجر إسماعيل. وأصل إحداثها الوليد بن عبد الملك والمهدي العباسي . وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنه أدرك هنالك سبع صوامع، وبالغ في وصف محاسنها . وأما في هذه العصور فهي خمس وهي على صفة بناءات صوامع مصر، فهي بلا شك من بناء بعض ملوك الترك المتأخرين بالديار المصرية والله سبحانه أعلم .

**ذكر البيوت المبنية بصحن المسجد الحرام:**

وتقدم وصف البيت الصغير الذي فيه حجر مقام إبراهيم فهو الأول، والبيت الثاني ذكروا لنا أنه مُعَدّ لاختزان آلات الاستصباح، وشاهدناهم يخرجون منه حسك الشمع وقناديل الزجاج . والبيت الثالث بيت حجرة زمزم وهو الذي فيه بئر زمزم كما يأتي وصفها . والبيت الرابع يسمى الآن قبّة الشراب لأن فيه خوابي كبار وأواني قلال وغيرها تملئ من ماء زمزم كما يأتي فيروون الماء فيها ويبرد ، والقائمون بهذا البيت ومائه هم من ذرية العباس عم الرسول ﷺ ، فخدامهم يسقون الماء من بئر زمزم ويصبونه في جذع نخل منقورٌ خاوٍ طرفه على عرصة في بيت زمزم وطرفه في بيت سقاية العباس، وإذا أفضى الماء إليها وملئت منه خوابيها روقه القائمون به وصفوا أوانيهم خارج بيت سقايتهم المذكورة فيشرب الناس منها ، وهذا في سائر أيام العام غير موسم الحج فإذا جاء الموسم أغلقوا باب بيتهم واختزنوا أوانيهم فيه لأجل كثرة الجهال والأعراب ولهم بخارج البيت مصاصات نحاس مركبة على أواني كبيرة فيشرب الناس منها حتى ينقضي الموسم، والله المستعان .

**ذكر بئر زمزم وصفتها وصفة حجرتها وقربها من الكعبة:**

قال الأزرقي بين ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود وبين حجرة زمزم ومقام إبراهيم أربعة وعشرون ذراعا وعشرون أصبعا . قال وأول من بنا قبة بئر زمزم وفرش ما حولها بالبلاط أبو جعفر المنصور ثم ابنه المهدي ثم جدّده المتوكل في المائة الثالثة . قال والمبنى المطوى من بئر زمزم طوله أربعون ذراعا وباقي قعرها جبل محفور عمقه تسعة

وعشرون ذراعا، وقال الأزرقي وغيره في قعر بئر زمزم ثلاث عيون إحداهن تجري من جهة الكعبة والحجر الأسود وهي أغزر تلك العيون جرية الماء وكلها غزيرة الماء، وقال أبو الحسين بن جبير طول مهوى الحبال في بئر زمزم إحدى وعشرة قامة وطول غمق مائها سبع قامات لا تنقص في موسم الحج ولا في غيره، وقال الأزرقي ارتفاع تنور زمزم يعني رقبة البئر ذراعان وشبر، انتهى كلامه . وقد جددت بعد عصر الأزرقي مرارا فذكر ابن جبير في رحلته أن بعض تجار العجم خدع أمير مكة من الشرفاء وقال له خلّ بيني وبين زمزم أتقن بناءه وأنا أعطيك كذا وكذا من المال، فخلى سبيله لذلك حتى إذا بناه في جميع ما يحتاج إليه وأتقنه هرب من مكة بالليل مع رفاق أقوياء وذهب لمأمنه رحمه الله . وهذه القصة ذكر ابن جبير أنها كانت قبيل عصره الذي حج فيه وهو حدود ثمانين وخمسمائة . وقال الأزرقي ذرع دور بئر زمزم أحد عشر ذراعا وسعته ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، انتهى .

وأما حجرة زمزم فهي قديمة البناء عليها من عهد بني أمية وبني العباس ثم جددت مرارا فشاهدناها مفروشة بالبلاط الجيد وبها حياض ملتصقة بجدراتها متنافرة يملؤها الناس ماء بقصد الوضوء منها ومجرى ماء الوضوء وغيره يخرج في قناة له تحت الأرض حتى يفضي إلى خارج المسجد، وباب هذه الحجرة شرقي المفتح وعليه مصراعان جيدان وبأعلى سطح هذه الحجرة بناء رفيع شبه سلّم ويسميه أهل مكة وأهل مصر الدّكّة وبه يؤذن المؤذنون لحضور الصلوات ويقيمون الصلاة ويسمعون، وهذا المبنا فيما ذكر ابن جبير أيضا قديم، وقد شاهدناه به أثر تسقيف جديد مرهون وأخبرونا أنه من عمل الظاهر حَقْمق في أواسط هذه المائة التاسعة وله بالمسجد

الحرام ومسجد الرسول آثار عظيمة خلّدت له مناقب جميلة نفعه الله بنيته في ذلك .

فأما أولية زمزم في كونها ركضة جبريل وسقيا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فخبر ذلك ثابت في صحيح الحديث ومروي السير كاد أن يكون متواترا .

**ذكر مياه مكة غير زمزم:**

اعلم أنه لم يكن بذلك الوادي المبارك ماء قبل زمزم، ولذلك حكى الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال ﴿ *ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادي غير ذي زرع* ﴾ . وقال أهل التفسير معناه غير ذي ماء . ولما نزلت جُرهم بهذا الوادي المبارك مع هاجر وابنها إسماعيل شرطت عليهم ألا حق لهم في ماء زمزم تعني أنهم لا يأخذون منه إلا مافضل عنها وعن ولدها الذي أنبع الله ذلك الماء لأجله . فالتزمت جُرهم ذلك واحتفروا بذلك الوادي آبارا . وكذلك خزاعة من بعدهم . ثم طمست آبارهم بطول المدى وكثرة فتن الحروب، فلما جمع قُصيّ قريشا بمكة كانت مؤونة الماء عليهم شديدة فيما حكى الأزرقي، وقال إن هاشم بن عبد مناف وأخاه عبد شمس حفرا بمكة بئرين بهما اكتفت قريش في الجاهلية حتى جاء الله بالإسلام ثم كثرت الربط وسبل الماء بها عندما تبحرت دولة بني العباس، لأن زبيدة امرأة هارون الرشيد أجرت إليها ماء عين عذبة غزيرة الماء من مسافة بعيدة وأنفقت عليها أموالا جليلة . قال الأزرقي انفقت زبيدة في توصيل الماء إلى مكة أموالا قلّ أن تسخو بها نفوس أكابر الملوك . وقال علماء بعض الأخبار كان الرشيد بعلها يعطيها كل يوم ألف دينار لأنها ابنة عمه وأم ابنه

محمد الأمين ولي عهده . وقد ريئت في المنام بعد موتها فقيل لها بماذا أثابك الله على الماء الذي أجريت إلى مكة ، فقالت هيهات وجدت تلك الأموال كلها في صحائف أربابها الذين أخذت منهم بغير الموجب الشرعي ، وإنما نفعني الله بصدقة خاتم ورثته عن أبي وتصدقت به فوجدته في صحيفتي ، انتهت حكايتها .

ثم انقطعت جرية عينها المذكورة وخربت مجاريها في مئين من السنين منذ وهنت الدولة العباسية وكثر اعداؤها من العبيدية والقرامطة وغيرهم . فلما كان في أول هذه المائة التاسعة ألهم الله الملك بُرُسباي صاحب ملك مصر في حدود ثلاثين وثمانمائة فاعتنى بإجراء ماء هذه العين إلى مكة كما كانت وسمعت بعض عامة المصريين يقولون إن الملك الأشرف بُرُسباي عجز عن ذلك بعد الشروع فيه ، فقال له التاجر بن المزلق دعني أكمل جريتها ونشاركك في ثوابها ، فتركه لذلك وهو الذي أجراها وأوصلها إلى مكة . فلأهل مكة بذلك الماء انتفاع عظيم في هذه العصور ، فإنه يستقر في صهاريج واسعة معدة له في بيت واسع بداخل باب المعلا فتستقي الناس منه حاجتهم بالليل والنهار ثم يتسرب الماء في مجاري تحت الأرض حتى يخرج لخارج باب المعلا وله هنالك مصنع سلطاني وهو مسقيتان عميقتان واسعتان متنافذتان فيصوب الماء فيهما ليلا ونهارا حتى يمتليا ومنهما انتفاع جميع أهل الموسم القادمين على مكة لنفسهم وبهائهم ، وقد شربت من هذا الماء المبارك مرارا فما شربت مثله عذوبة ولذاذة وطيب مطعم . وقال تقي الدين الفاسي أن الآبار التي سُبلت بمكة ثمان وخمسون بئرا ، والسقايات خمس وأكثرها من عمل جعفر المقتدر العباسي والي الدولة في أوائل المائة الرابعة ، انتهى كلامه .

ولنرجع إلى ذكر بئر زمزم فاعلم ان ماءه شروب أي فيه حروشة ملوحة وقد كان فيه قبيل الإسلام على عهد عبد المطلب غلظ ملوحة بيّنة لأنه قريب عهد بظهور مائه بعد طول ردمه، لأن عبد المطلب هو الذي احتفره لما قيل له في منامه احفر ماء زمزم كما ذكر أصحاب السير. فكان عبد المطلب يشتري الزبيب وينقعه في حياض له بماء زمزم ليخف شرابه وتسوغه عذوبة الزبيب كذا ذكر الأزرقي وغيره. ولما أفضت سقايته إلى ولده العباس وكان موسرا ذا تجارة ومال واسع، قال الأزرقي فاشترى بالطائف حوائط من شجر العنب ليعمل منه زبيبا وينقعه في ماء زمزم فيسوغ للشاربين كما كان أبو عبد المطلب يفعل انتهى كلام الأزرقي.

وقد عذب هذا الماء وطاب بحمد الله وببركة نبيه وصفيه محمد ﷺ فقد روى الأزرقي من طريق مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ تناول دلوا من بئر زمزم فشرب منه ثم مجّ فيه من فيه المبارك ثم أفرغه في بئر زمزم، انتهى كلام الأزرقي.

ولا يشك مسلم عاقل في أن عذوبة هذا الماء المبارك وطيبه إنما اكتسبها ببركة ريق المولى المصطفى ﷺ ومحبة فيه، فهو إلى الآن رائق مستلذ عند أهل اليقين يستكثرون ويتضلعون منه كما أمرهم نبيهم ﷺ. وقد تحققنا من هذا الماء المبارك أنه إذا شرب من دلو استقائه سخنا فاترا يكون كالحليب إذا خرج من الضرع لما فيه من فتور سخونة مع بعض خثور. فإذا ترك في أوان الفخار وأسقيته الجلد برد وأراق وظهرت عذوبته الرافعة لحروشته بغير زبيب ولا غيره.

فأما الأحاديث والآثار الواردة في فضل زمزم وبركته فأشهرها

قوله ﷺ : ﴿ *ماء زمزم لما شرب له* ﴾ وقوله ﴿ *هو طعام طعم وشفاء سُقم* ﴾ . وأشدها ترغيبا فيه ما رواه ابن فرحون في مناسكه، قال، رُوي عنه ﷺ أنه قال : ﴿ *النظر إلى زمزم عبادة والطهور منه يحبط الخطايا وما امتلأ جوف عبد من ماء زمزم إلا ملأه الله علما وبرا .* ﴾ والأخبار في فضله كثيرة فلا نطيل بإيرادها .

**فصل :**

وبعد الفراغ من ذكر الكعبة المعظمة ومسجدها الحرام المرفع وصفة ذلك وما احتوى عليه المسجد بداية ونهاية، فلنرجع إلى صفة مكة كلها بواديها وجبالها المحيطة بها والقريبة منها ثم نذكر معالم الحج المتعلقة بحرم مواقيته ونذكر حدود الحرم وكل ذلك على الإيجاز والتمام إن شاء الله .

**ذكر صفة مكة زادها الله تشريفا:**

فاعلم أنها واد كما قال الله سبحانه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام :" بواد غير ذي زرع " وهو واد ينصب من المشرق إلى المغرب طولا وله أعلا وهو شرقيه وبه باب مكة الذي يسمى باب المعلى، وله أسافل وبها باب مكة الذي يسمى باب المسفل، ولم يذكر الأزرقي والبكري طول مكة وعرضها، وقيل إن طول مكة من حومة باب المعلى إلى حومة باب المسفل ثلثا ميل وثلاثة أرباع الميل بتقريب . وعرضها من سفح جبل قُعَيْقُعان بجوفها إلى جبل الخندمة بجنوبها أقل من نصف ميل، والدور والمنازل بجميع هذا الوادي المبارك . فالمسجد الحرام بكعبته وما فيه في أواسط أعلا مكة والمساكن محيطة به والذي ذكرنا من أبوابها هي الآن ومنذ أزمان ثلاثة أبواب باب المعلى

وباب المسفل وباب الشبيكة . وليست في سور ولا مصارع عليها ولا إغلاق وإنما هي فجاج بين الجبال وعليها أقواس منها يدخل الداخل ويخرج الخارج وتسمى أبوابا . وقد فشا بناء الدور والمنازل بجميع الجبال المحيطة بوادي مكة وهي جبل أبي قبيس وجبل الصفا وجبل المروة وجبل قعيقعان . فالدور والمساكن بجميع هذه الجبال متراكبة بعضها فوق بعض كبناء مدينة بجاية بالمغرب الأوسط . وفي هذه الجبال ومساكنها يتسع أهل مكة في مواسم الحج لأنهم يكرون منازل بسيط وادي مكة للحجاج على كثرتهم ثم يصعدونهم إلى هذه الجبال المذكورة .

**تنبيه** : واعلم أن نزول ركبان الحجاج بمكة في كل عام من عجائب الدنيا وعظيم آيات الإسلام، فإنها تسع أهل موسم الحج الوافدين عليها من أقطار الآفاق في كل عام من أنواع الأمم على كثرتهم، فإن كل موسم يجتمع فيه ستمائة ألف نسمة وأقل وأكثر بحسب الأعوام وخصوصا عام وقفة الجمعة، وكلهم ينزلون بمكة ويكترون منازلها وسرحاتها لأنفسهم وجمالهم وبهائمهم ولا يزالون بها من غرة ذي الحجة إلى الثامن منه وهو يوم خروجهم إلى منى .

وقد روى الأزرقي وغيره من طريق عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن مكة تتسع للوافدين عليها كما تتسع الرحم للولد . وكذلك روى مثل هذا في أرض منى وانها تتسع للنازلين بها كاتساع الرحم للولد . وهذه الأحاديث الكريمة برهان صدقها أجلى من الشمس، في العيان مشاهد على مر الأزمان والحمد لله . انتهى التنبيه .

فأما الجبال التي أحاطت بمكة فأعظمها وأشهرها جبل أبي

قُبيس وهو في شرق المكة منحرفا للجنوب يواجه الحجر الأسود من الكعبة، وهو أحد أخشبي مكة . والأخشب الثاني هو الجبل الأحمر الذي في غربها وقيل بل هو جبل قُعيقِعان . وقال أبو عبيد البكري، سمي أبو قبيس لأن أول من اتخذ البناء فيه رجل من مُذحج أو من إياد يدعى أبو قبيس . وقيل سمي بذلك لأن الحجر الأسود اقتبس منه يعني أخذه إبراهيم عليه السلام من ذلك الجبل في وقت بنائه للكعبة فقد روى أن الجبل المذكور كان جبريل عليه السلام استودعه الحجر الأسود في وقت الطوفان فلما بنى إبراهيم الكعبة ناداه الجبل يا خليل الله هلم فخذ وديعتك التي لك عندي، وكشف له عن الحجر الأسود ،قالوا ، فلذلك كان جبل أبي قبيس يدعى الأمين ويتصل به من غربه .

جبل الصفا وهو ملاصق لأبي قبيس وكان جبل الصفا في الجاهلية يقال له انف أبي قبيس لاتصاله به وصغر جرمه عنه . ثم يقابل جبل الصفا من جهة جوفيه جبل المروة وهو في طرف شرقي مكة منحرف للجوف وبينه وبين الصفا طريق محجة واسعة هي المسعى بينهما ويقطعهما الساعون طولا لأنهما من شعائر الله كما قال جل ثناؤه، والسعي بينهما من فرائض الحج عند جمهور فقهاء الأمة . وقال الأزرقي ذرع طول ما بين الصفا والمروة سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعا ونصف ذراع وعرض المسعى بينهما خمسة وثلاثون ذراعا ونصف ذراع، انتهى كلام الأزرقي . وأظنه يعني بعرض المسعى أوسطه وإلا فإن أعلاه وأسفله أعرض من هذا والله أعلم .

ثم قال الأزرقي وأول من بنا درج الصفا عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس وذلك بأمر أبي جعفر المنصور، انتهى كلامه .

ويعني أن هاذين الجبلين المباركين الصفا والمروة كانا في الجاهلية وفي صدر الإسلام على عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين إذا سعى الساعون بينهما يصعد في سفح كل واحد منهما حتى يشاهد الكعبة فيقف للدعاء وهو ينظر إليها كما هو مطلوب في السنة، فلما كثرت البناءات بجبل الصفا في عهد بني أمية أمر أبو جعفر المنصور العباسي بعدهم ببناء أدراج بسفح الجبل المذكور ليصعد الساعي عليها حتى يشاهد الكعبة . وقال البكري عدد هذه الدرجات اثنتا عشرة درجة وكذلك بنا أبو جعفر المنصور بجبل المروة أدراجا لمشاهدة الكعبة . فأما جبل الصفا فلم يزل على ما ذكر الأزرقي والبكري من وجود الدرجات ومشاهدة الكعبة من أعلاهن، وأما جبل المروة فليس بسفحه في هذه العصور سوى درجة واحدة مستطيلة يصعد الساعي عليها ويلزق مؤخرا عقبيه بجبل المروة حتى لا يفوته موضع أصبع من مسافة ما بين الصفا والمروة ولا يقدر على مشاهدة الكعبة لبعد ذلك الموضع عنها وعن مسجدها ولأجل كثرة البناءات الحائلة بين الساعين وبين الكعبة فيما شاهدناه هنالك .

وقد كان بقرب جبل المروة جُبيل صغير يسمى حزْورَة وكان بإزاء سوق مكة في الجاهلية، فلما كانت زيادات مساحات المسجد الحرام في مدة الوليد والمهدي نُحت هذا الجُبيل كله ودخل موضعه في المسجد ويتصل بجبل المروة من غربيه .

جبل قُعيْقِعان وهو أشمخ من جبل المروة، وكذلك كان المروة في الجاهلية يقال له أنف قعيقعان لاتصالهما وصغر أحدهما عن الآخر كما تقدم ذكره عن جبل الصفا وأبي قبيس .

وبغربي مكة والمسجد الحرام جبل يسمى الجبل الأحمر . قال البكري وكان في الجاهلية يسمى الأجرب، انتهى كلامه. وأظن قريشا كرهوا تسمية الأجرب على عادتهم في التطير وسموه الأحمر لحمرة في لونه ظاهرة باقية إلى الآن والله أعلم .

فهذه جبال المسجد الحرام المحيطة به القريبة منه بحيث أن الجالس بالمسجد يشاهد تصرف الناس الساكنين بهذه الجبال، وقد رأينا الفقهاء والعدول من أهل مكة صعدوا على قُنّة أبي قبيس يلتمسون رؤية هلال ذي الحجة من ذلك العام ونحن نشاهدهم من صحن المسجد .

فأما الجبال المحيطة بخارج مكة ففي جنوبيها جبل الخَندمة وهو مشرف على الجبل المسمى جبل أحياد وهنالك جبال عدّ البكري منها الجبل الأبيض والجبل الأعرج وغيرهما ، لكن ذهبت أسماؤها من أهل هذه العصور . والمعلوم المشهور الان ومنذ أول عهد الإسلام بخارج مكة وداخل حرمها جبل حراء، وهو الذي كان مولانا الرسول المصطفى ﷺ يتعبد بغار فيه قبل أن يوحى إليه بإلهام الله وتوفيقه، ثم فاجأه الوحي العزيز وبدايته الكريمة بذلك الغار المبارك من ذلك الجبل المبارك . قال البكري وهو جبل منفرد من الجبال بينه وبين مكة ميل ونصف عن يمين الذاهب من مكة إلى حُنين . وقال غير البكري عن يمين الذاهب إلى منى، وقال ابن جبير إنه يشرف على منى وقال البكري وابن جبير إن حراء جبل صعب المرتقا شامخ العلو في السماء ولا يصعد إليه إلا من طريق واحدة في صفاة ملساء وهو منقطع لا يرقاه راق إلا من تلك الطريق، انتهى كلام البكري . وبهذا يظهر فضل الله على صفيه وحبيبه محمد ﷺ حيث يتكرر إلى هذا

الجبل ويطيل اللبث في غاره غير مكترث بصعوبة مرقاه وذلك من إرهاصات آياته وواضح معجزاته عليه صلوات الله وسلامه .

ويلتحق بحراء في الشهرة جبل ثور، وقال البكري وهو في الجنوب عن مكة بينه وبينها ميلا وهو مشرف متشامخ في علوه يكون طول ارتفاعه في الهواء نحو ميل وفي أعلاه الغار الذي دخله المصطفى ﷺ وصاحبه الصديق في أول الهجرة، انتهى كلام البكري . وهذا هو الغار المذكور في كتاب الله المراد بقوله تعالى إذ هما في الغار من غير خلاف بين المفسدين . وقال البكري كل من صعد إلى أعلا جبل ثور فإنه يرى البحر، انتهى كلامه . ويعني بحر ساحل جدة وما قاربها لأن بينه وبين مكة أقل من مسيرة يومين فهو يظهر من جبالها الشامخة . وقال إن في جبل ثور شجر البان وجميع نبات الحجاز وشجره كثير وفيه شُجيرة من يحمل منها شيئا لم تلدغه سامة ولا هامة، وقال ابن جبير عرض فم الغار الذي دخله الرسول وصاحبه في جبل ثور ثلثا شبر وطوله ذراع، انتهى كلام ابن جبير ولا خلاف في ذلك وفيه عبرة لأولي الأبصار .

**ذكر معالم الحج والبداية بأرض منى :**

هي في شرقي مكة لكن بتحريف الشرقي عنها وبينهما ثلاثة أميال ونحوها، وقال البكري من المسجد الحرام إلى الجمرة الثالثة القصوى من أرض منى أربعة أميال، وقال الأزرقي بين جمرة العقبة والجمرة الوسطى التي تليها أربعمائة ذراع وسبعة وثمانون ذراعا واثنا عشر أصبعا، ومن الجمرة الوسطى التي تليها أربعمائة ذراع وسبعة وثمانون ذراعا واثنا عشر أصبعا من الجمرة الوسطى إلى الثالثة القصوى ثلاثمائة ذراع وثلاثة أذرع، وقد وافقه البكري على القياس

الأول فيما بين جمرة العقبة والتي تليها وخالفه في القياس الثاني . وكلام الأزرقي أثبت في هذا الباب ولا خلاف بين الأمة أن أول أرض منى جمرة العقبة، فكل من جاوزها مشرقا فقد دخل أرض منى ومن جاوزها مغربا فقد خرج من أرض منى ودخل في نواحي خارج مكة .

وصفة جمرة العقبة الآن ومنذ أزمان أنها بناء كالبرج أو كصومعة صغيرة عريضة لكنها مُصْمَتة لا جوف لها وقد بنيت على رأس شرق من حجر صلد ينحدر الناس منه إلى أرض مكة ويصعدون فيه إلى أرض منى ولانحداره يسمى عقبة وأضيفت إليه الجمرة الأولى العظمى .

وصفة الجمرتين الباقيتين هكذا في البناء إلا أن جمرة العقبة أضخم بناء من الجمرتين الأخريين فيما شاهدناه وهو بناء ولا يزال يجدد كلما احتاج إلى تجديد لأن هذه البناءات المذكورة قد جعلت علامات على موضع رمي الحجاج للجمار وتحرّوا بها في أول وضعها موقف رسول الله ﷺ لرمي جماره في حجة الوداع والجمار حصباء صغيرة موصوفة في كتب الفقه . وقال علماء هذا الشأن أول من رماها إبراهيم الخليل بما علمه جبريل عليهما الصلاة والسلام . وقال الأزرقي في مروياته أن إبراهيم عليه السلام رمى بها إبليس فأجمر إبليس هاربا، قال والإجمار هو الإسراع فلذلك سميت هذه الحصباء جمار انتهى كلام الأزرقي .

ثم وصف رحمه الله مسجد منى وما كان عليه من الأبهة وضخامة البناء وكثرة الآلات والقناديل وكل ذلك كان في عصر الأزرقي وما بعده، ثم خرب هذا المسجد فهو في هذه العصور ومنذ عصور جدار غير طويل وقد أحاط بكثير من أرض منى وفي أوسطه

بناءان كصومعتين يقال إنهما جعلا علامة على موضع نزول الرسول ﷺ ومصلاه بمنى وشاهدنا جداره المحيط به قد تهدم من جهات وخرب وليس له أبواب ولا إغلاق قبل خرابه وتهدمه ورأينا به من فضلات وحوش البر وفضلات وحوش بني آدم وجُهّالهم ما يحزن قلوب الموقنين ويملأها حسرة على ضياع معالم الدين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والذي أظنه أن المحافظة على أصل خطة هذا المسجد المبارك لم تزل تتناقل خلفا عن سلف إلى عهد الذين ابتدأوا بناءه واختطاطه من ملوك بني أمية وبني العباس ولكن خرب وضاع بطول المدى وحطاطة الهمم وتراكم الفتن . وقال البكري ذرع مسجد منى في طوله من وجهه الذي يلي دار الإمارة إلى حده الذي يلي عرفات مائتا ذراع وثلاثة وتسعون ذراعا واثنا عشر أصبعا وعرضه من حده الذي يلي الجبل إلى حده الذي يلي الطريق مائة ذراع وأربعة أذرع واثنا عشر أصبعا ، انتهى كلام البكري . وفيه دليل على أن هذا المسجد كان واسع الخطة وأنه لم تزل بعض ضخامة بنائه إلى عصر البكري وهو أواسط المائة الخامسة ، فإنه ذكر في كتاب المسالك والمهالك أنه ألفه في حدود ستين وأربعمائة وكذلك ذكره لدار الإمارة هنالك وقد خرب في هذه العصور جميع تلك البناءات فسبحان المدبر الحكيم .

وقال الأزرقي طول أرض منى من جمرة العقبة إلى وادي مُحسّر سبعة آلاف ذراع ومائة ذراع، وعرضها في حومة مسجدها ألف ذراع وثلاثمائة ذراع، انتهى كلام الأزرقي . وقد تبعه عليه البكري وزاد أن وادي مُحسر خمسمائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعا ، انتهى كلام البكري . ولا خلفة بين علماء هذا الشأن أن وادي محسر يحد منى من

شرقيها ويحد المزدلفة من غربيها وهو حاجز بينهما ولا يُحسب في واحد منهما والله سبحانه أعلم .

**ذكر أرض المزدلفة :**

وهي تحد وادي محسر من شرقه كما تقرر وبها جبل قُزح وهو المشعر الحرام المذكور في القرآن قاله كثير من العلماء وعند الإمام مالك رحمه الله أن المزدلفة كلها هي المشعر الحرام، فتقررت لها ثلاثة أسماء : المزدلفة والمشعر الحرام وجمع . وقيل سميت جمعا لأجل اجتماع الحجاج بها ليلة يوم النحر، وقيل لاجتماع آدم وحواء بها بعد هبوطهما من الجنة . قالوا وعندما لقيها هنالك ازدلف إليها وازدلفت إليه أي تقاربت منه وتقارب منها فلذلك سميت الأرض بالمزدلفة .

والعجب من الأزرقي والبكري حيث لم يذكر طول المزدلفة وعرضها كما ذكر أرض منى بالطول والعرض وإنما قال البكري بئر مسجد منى وبئر المزدلفة ثلاثة أميال، وقال الأزرقي بينهما ميلان وهو أوثق وأثبت رحمة الله عليهما .

والذي ظهر لنا أن مسافة طول أرض المزدلفة تقرب من ميلين وعرضها بين الجبال التي تحدها من جوفيها وجنوبها مائة ذراع ونحوها والله أعلم .

وقد ذكر الأزرقي والبكري أيضا ضخامة مسجد المزدلفة وهو في هذه العصور صغير الخطة شاهدناه وعليه باب مغلق المصاريع يصعد إليه بدرجات قليلة وهو في نشر من الأرض هنالك وجميع هذه المساجد بمنى والمزدلفة وعرفات إنما جعلوها علامة على نزول المصطفى ﷺ بتلك البقاع في حجة الوداع .

وفي طرف أرض المزدلفة من شرقها جبلان يكتنفان محجة

الطريق منها إلى عرفات لا مسلك للناس إلا من بينهما وهما المأزمان المذكوران المشهوران . وقال الأزرقي ذرع ما بين المأزمين مائة ذراع وذراعا واثنا عشر أصبعا ، انتهى كلامه .

وإذا خرج الناس من بين المأزمين مشرقين فقد خرجوا من أرض المزدلفة ودخلوا أرض نمرة وهي متصلة بأرض عرفة . ونمرة هي إسم جبل هنالك سميت به الأرض، قاله الأزرقي . وفي أرض نمرة صلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر في حجة الوداع وخطب الناس هنالك يوم عرفات ليتهيئوا للوقوف بعرفات . فإن نمرة متصلة بأرض عرفة وبين العلماء فيها خلاف هل هي من عرفة أم لا . إلا أن نمرة من حرم مكة بالإجماع وأرض عرفة بعضها في الحرم وبعضها في الحل وموقف الناس فيها هو من الحل بالإجماع .

### ذكر حدود الحرم:

لا خلاف بين الأمة أن الله تبارك وتعالى جعل مكة حرما آمنا كما قال جل شاؤه . وحرمها مختلف المسافات، فأطوله أحد وعشرون ميلا عن مكة وهو حده من جهة ميقات الحديبية ، ذكر ذلك تقي الدين الفاسي وهو غريب والمعلوم عند أئمة هذا الشأن أن بعد الحديبية عن مكة اثنا عشر ميلا وبعد ميقات قرن الثعالب الذي لجهة العراق وهو ميقات أهل العراق تسعة أميال، وبعد ميقات الجعرانية كذلك . وآخر حدود الحرم بعرفات بُعده عن مكة عشرة أميال وأقصر مسافات الحرم حدّه الذي من جهة التنعيم فإنه هنالك على ستة أميال من مكة وكذلك حد الميقات الذي لجهة بطن مرّ ويعرف الآن بمسجد عائشة وميمونة فإنه على ستة أميال من مكة فلا يجاوز أحد نصاب هذا الحرم المبارك في جميع هذه المواقيت ذاهبا إلى مكة إلا أن

يحرم بحجة أو عمرة سوى الحطابين وأمثالهم من المتكررين لسوق مكة وميرتها .

وقد اختلفوا في سبب تحديد هذا الحرم بهذه الحدود وحصر مسافاتها فروى الأزرقي وغيره أن أصل ذلك حيث انتهى ضياء الحجر الأسود عند أول نزوله من الجنة، وقيل حيث بلغ ضياء قبة الياقوت التي أنزلت في موضع الكعبة، وقيل حيث وقفت الملائكة لحراسة آدم عليه السلام من الشياطين حيث كان آدم بمكة وكل هذا شبه استحسان ويضعف من جهة النقل والأصل المعول عليه في هذا أن الله تبارك وتعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فعلمهما مناسك الحج وأفعاله في جميع معالمه ثم أوقفهما على حدود الحرم وحصر مسافته والله أعلم .

ولم يزل سكان مكة يحافظون على تلك الحدود من عهد جُرهم أصهار إسماعيل الذين أدركوه ثم خزاعة من بعدهم ثم قريش . ولم يزالوا يجددون أنصاب أعلام حدود الحرم وقالوا إن قُصيا جددها عندما حاز مكة وجمع قريشا بها . ثم لما بعث الله رسوله محمدا ﷺ وناصبه كفار قريش بالعداوة والمخالفة بلغهم أنه يسأل عن أنصاب حدود الحرم وعن تجديدها وذلك قبل هجرته ﷺ فقصد سفهاؤهم مخالفته واقتلعوا أعلام حدود الحرم وأتلفوها وكانت هذه الأعلام خشبا غليظة يرشقونها في مواضع معلومة أنها آخر حدّ الحرم . وقال الأزرقي ولما اقتلعت سفهاء قريش أعلام الحرم حزن النبي ﷺ لذلك حزنا شديدا فرأى بعض كبرائهم في النوم قائلا يقول له : يا معشر قريش عمدتم إلى حرم هو حرزكم وشرفكم فأذهبتموه والله لتخطفنكم العرب إن لم تردوه . ففشا خبر هذه الرؤيا في قريش

وخافوا خوفا شديدا ، ثم اجتمعت مشايخهم على ردّ أعلام حدود الحرم فردوها . قال الأزرقي ففرح بذلك رسول الله ﷺ فرحا عظيما وسأل جبريل هل ردوها على حدود إبراهيم وإسماعيل قال نعم وما وضعوا منها علما إلا بيد مَلَك، انتهى كلام الأزرقي .

ويعني بقول جبريل عليه السلام ما وضعوا منها علما إلا بيد مَلك، أن الملائكة هم الذين كانوا يحركون أيدي الذين كانوا يضعون الأعلام حتى ردوها على غاية الصواب . فهي من عهده ﷺ قطعية . ثم لما صارت مكة في إيالة الإسلام بعد فتحها جددت هذه الأعلام ولا خلاف أن عمر رضي الله عنه جددها في خلافته واعتنى بذلك وبعث إليه المشايخ المسنين من قريش حتى رشقوا خشب الأعلام في حدودها القديمة، فلما تبحّر الإسلام في زمن معاوية اعتنى بهذه الأعلام فترك رشق الخشب في حدود الحرم وبنا لها أعلاما كالأبراج بالطين والحجر ثم تبعه على ذلك ملوك الإسلام فلم يزالوا يجددون بناء هذه الأعلام جيلا بعد جيل إلى عصرنا هذا . والذي شاهدنا بعرفات منها بناءان وثيقان أعلاهما مستدير وكأنهما برجان فمن جاوزهما ذاهبا إلى جهة موقف الناس بعرفات فقد دخل في الحل ومن جاوزهما ذاهبا إلى المزدلفة ثم إلى منى ومكة فقد دخل في الحرم .

### ذكر عرفات :

هي أرض فسيحة الأرجاء قد أحاطت بها الجبال من جميع جهاتها وفي وسطها جبل متوسط بين الكبر والصغر ويتصل به جبلان صغيران، وبذيل هذه الجبال الثلاثة وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وموقفه هنالك معلوم إلى هذا العهد وبه يقف أمراء الحجاج إلى الآن . وقد قال ﷺ : " *وقفت هاهنا وعرفات كلها موقف وارتفعوا عن بطن عُرَنَة* " .

واعلم أن بطن عُرنة كمسيل ماء وهو منخفض في جنوب موقف عرفات، وهو معلوم عند أهل مكة وجيرانهم . وقد نهى ﷺ عن الوقوف به في يوم عرفة . فالناس إلى الآن يرتفعون عنه ويتزاحمون على القرب من موقف الرسول ﷺ .

وقال ابن جبير في رحلته، أرض عرفات بسيطة فيحاء واسعة الأكناف والأرجاء بحيث لو اجتمع بها أهل الدنيا لوسعتهم . وهو مبالغة منه في الكناية عن سعة هذه الأرض المباركة . ولم ينبه الأزرقي والبكري وغيرهما عن هذه الأرض طولا وعرضا كما فعلوا في معالم الحج المتقدم ذكرها، فالله أعلم بما قصدوا في ذلك .

وقال ابن جبير بين مكة وعرفات اثني عشر ميلا بعد أن عيّنها ميلا ميلا، ثم تبعه البكري على جملة اثنا عشر ميلا من غير تعيين الأميال، رحم الله جميعهم .

ومن عجائب صنع الله الجميل أن ظهرت بأرض عرفات في سني بضع وسبعين وثمانمائة من عصرنا هذا عين ماء عذب ثم جهرت وغزر ماؤها وبنيت عليها مصانع انتفع الحجاج بها وتواترت الأخبار بذلك في الآفاق، فسبحان ربنا عظيم السلطان الذي كل يوم هو في شأن .

وهذه نهاية ذكر مكة وأوصافها وجميع ما يتعلق بها من داخلها وخارجها والحمد لله على التوفيق ونستغفره من كل تقصير .

